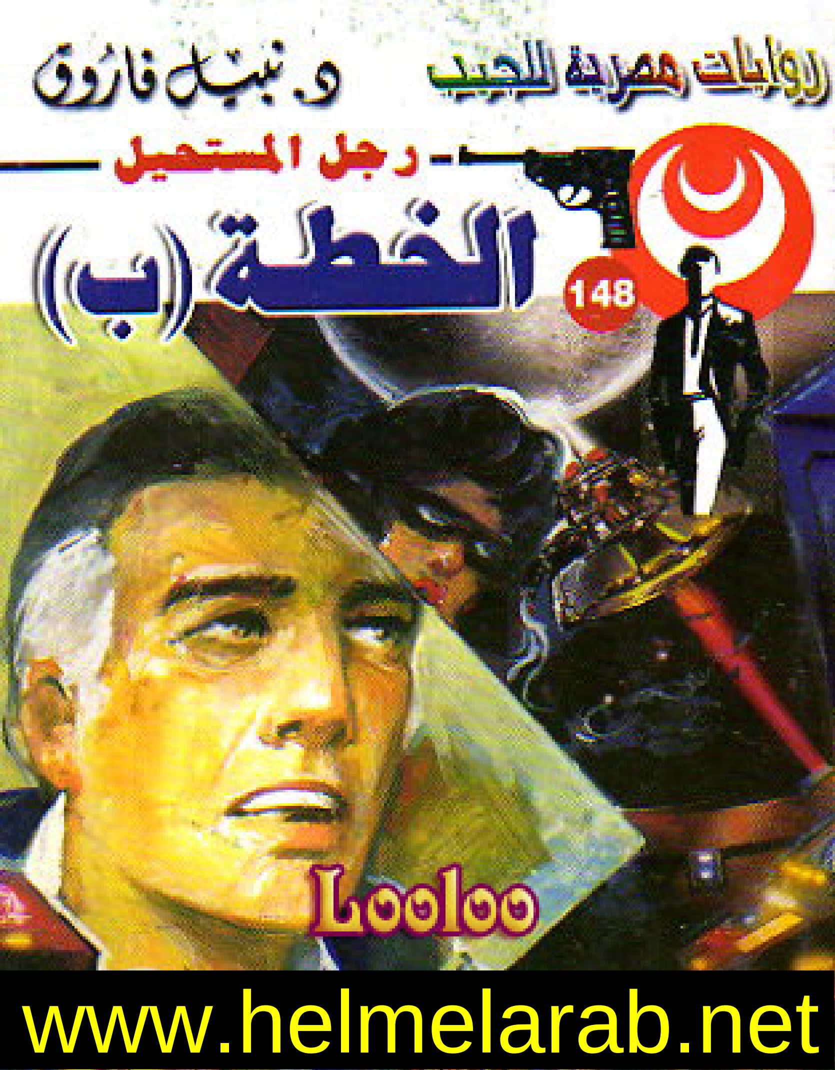

روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
الخطة (ب)
148
Looloo
www.helmelarab.net

رجل المستحيل

(أدهم صبري).. ضابط مخابرات مصري، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعني أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعني أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبري) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حية، وبراعته الفائقة في استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد في سن (أدهم صبري) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبري) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذي أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- المقاعد الاحتياطية..

التقط مدير المخابرات العامة المصرية نفسًا عميقًا، ثم أطلقه في تنهيدة حارة، وهو يراجع آخر التقارير السرية، الواردة من الولايات المتحدة الأمريكية، قبل أن يغمغم:

- رباه! من الواضح أن تلك الغامضة تمتلك شبكة معلومات رهيبة، لم تحظ بها منظمة للجاسوسية الخاصة قط، عبر التاريخ كله.

أومأ مساعده برأسه إيجابًا، وهو يضيف:

- وقوة بلا حدود أيضًا يا سيادة الوزير(*)، فما فعلته هناك، عند ساحل (نورفك)، يؤكد أنها أقوى من كل الأجهزة الفنية الأمريكية مجتمعة.

أشار المدير بسبابته، متمتمًا:

- هذا صحيح.

وعاد يلقي نظرة أخرى سريعة على التقارير، قبل أن ينهض من مقعده، ويتجه نحو نافذة حجرة مكتبه، ويعقد كفيه خلف ظهره، وهو يتطلع عبرها في صمت، ثم يتمتم:

- الموقف ازداد تعقيدًا، على نحو غير مسبوق.

(*) مدير المخابرات العامة المصرية في درجة وزير، يتبع رياسة الجمهورية مباشرة.

نطقها ، وذهنه يحاول استرجاع الأحداث ، التي بدأت منذ أيام قليلة .. قليلة للغاية ..

بدأت منذ تجاوز الأمريكيون كل الحدود ، وتقدموا بطلب رسمي إلى المخابرات المصرية ، لإقصاء (أدهم صبري) عن عمله في المخابرات ، وإلا تعرضت (مصر) كلها إلى عقوبات سياسية واقتصادية وعسكرية عنيفة ..

ورفضت (مصر) هذا الأسلوب الوقح ..

وبشدة ..

وتهدئة للأمور ، عرض (أدهم) الاستقالة من جهاز المخابرات ، إلا أن رئيس الجمهورية ومدير المخابرات رفضا هذا تمامًا ، بل وقرر سيادة الرئيس منح (أدهم) أرفع أوسمة الدولة ، تحديًا للغطرسة الأمريكية ، وإثباتًا للسيادة المصرية ، و ...

ووسط كل هذا ، ظهرت تلك الزعيمة ..

الزعيمة الغامضة ..

ظهرت لتتحدى الأمريكيين على نحو سافر ..

عنيف ..

قاسٍ ..

وبعد أن أثبتت قوتها أكثر من مرة ، بوساطة سيطرتها التامة على قمر صناعي دفاعي ، يتبع مشروع (حرب النجوم) ، بدأت الزعيمة الغامضة في فرض شروطها ..

وكأي مبتز ، طالبت الأمريكيين بمائة مليار دولار من الماس النقي ، على أن يقوم بتسليمها رجل مخابرات ..

رجل مخابرات مصري ، يُدعى (أدهم) ..

(أدهم صبري) ..

وعلى الرغم من صدمة الأمريكيين ، واستنكارهم للأمر ، وغضبهم البالغ منه ، لم يكن أمامهم خيار ..

لابد من الاستعانة بالمخابرات المصرية ..

وبرجلها (أدهم صبري) بالتحديد ..

لذا ، كان من المحتم أن يتغير العرض الأمريكي الوقح ، وأن ينقلب رأسًا على عقب ، بعد أن وضعت الزعيمة الغامضة كل نظم الأمن الأمريكية في مأزق حرج .. ومن أجل (مصر) ، وافق (أدهم) .

واثق على معاونة الأمريكيين ، في مواجهة تلك الزعيمة الغامضة ؛ لأن نجاحها في السيطرة على مقاليد الأمور ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، سيُحدث خللاً في ميزان القوى ، قد يؤدى إلى تدمير العالم كله .

وكان على (أدهم) أن ينطلق إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، على متن مقاتلة أمريكية ..

وعبر المحيط الأطلنطي ، انطلقت مقاتلة (أدهم) ..

وانطلقت خلفها مؤامرات الزعيمة الغامضة ..

وبمواجهة عنيفة ، نفد وقود مقاتلة (أدهم) ، وسقطت هناك .

في قلب المحيط ..

وفي نفس الوقت الذي تلقى فيه الأمريكيون ضربات متتالية ، من تلك الزعيمة الغامضة ، سقط (أدهم) في قبضتها ..

وعلى الرغم من أنها كانت قادرة على قتله ، في أية لحظة ، إلا أنها أبقت على حياته ؛ لأنها ترى أن المتعة لا تكمن في قتله ..

بل في هزيمته ..

وانطلقت المخابرات المصرية تبحث عن تفسير لاختفاء رجلها الأول ، في قلب المحيط ..

وتوصلت إلى نظرية ..

نظرية وجدت صدى لدى المخابرات الأمريكية ، وخاصة بعد أن وجّهت إليهم الزعيمة الغامضة أعنف ضرباتها ، ولقنتهم أعنف دروسها ، وهي تحصل منهم على حقيبة الماس النقي ..

مائة مليار دولار من الماس النقي ، حصلت عليها الزعيمة ، بعد أن سحقت نظم الأمن الأمريكية سحقًا ..

ولكنها لم تكتف بهذا ..

فمع تحالف القوى ضدها ، قررت أن تبتز الإدارة الأمريكية بوسيلة جديدة رهيبة ..

وكانت صدمة رهيبة للجميع ..

فما طلبته كان يتجاوز كل الحدود ، وكل المقاييس ، وكل قواعد العقل أيضًا ..

وإلى أقصى حد ..

وفى نفس الوقت ، الذى كانت تلقى فيه مطالبها ، كان قائد قواتها ، ومساعدتها الأولى (تيا) يستعدان لدفع (أدهم) ، عبر أنبوب إطلاق الطوربيدات ، فى غواصتها الخفية إلى الأعماق ..

أعماق الموت(*) ..

ولأن مدير المخابرات العامة المصرية ، لم يكن يعلم سوى الجزء المعلن من الأمر ، فقد أطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، قبل أن يضيف :

ـ نعم .. ازداد تعقيداً إلى أقصى حد ، وما زلنا نجهل مصير (ن ـ ١) ..

هزّ مساعده رأسه فى أسف ، قبل أن يقول :

ـ المشكلة أن الأمر كله فى نطاق الأمريكيين وحدهم ، وداخل حدودهم .

قال مدير المخابرات فى حزم :

ـ هذا لا يعنى أن نقف ساكتين .

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزأين ، الأول والثانى ، (المأزق) ، و(القبضة) ، المغامرتين رقمى (١٤٦) ، (١٤٧) .

سأله المساعد فى اهتمام :

ـ وما الذى يمكننا أن نفعله يا سيدى ؟!

صمت مدير المخابرات طويلاً هذه المرة ، قبل أن يجيب ، فى حزم أكبر :

ـ بل قل ما الذى فعلناه .

ثم استدار إلى مساعده ، مضيفاً :

ـ لقد بدأت خطتنا الاحتياطية بالفعل .

وارتفع حاجبا المساعد فى دهشة ..

فالمفاجأة كانت قوية ..

للغاية ..

* * *

« أنت مجنونة !! مجنونة بحق !! »

هتفت مستشارة الأمن القومى الأمريكية بالعبارة ، بكل ما اعتمل فى نفسها من غضب وثورة ، وهى تواجه شاشة التلفاز ، التى حملت صورة الزعيمة الغامضة ، التى أطلقت ضحكة عالية ، عابثة ، مجلجلة ، وألقت بقايا سيجارتها بعيداً ، وهى تقول :

- من الواضح أن مطلبى هذا قد أثار جنونكم .. يا إلهى ! كم يروق لى هذا :

غمغم مدير المخابرات ذاهلاً :

- إنها مجنونة حتمًا .

هتفت الزعيمة فى سخرية ، وهى تشعل سيجارة جديدة ، من سجائرها الحمراء الرفيعة :

- لقد سمعت هذا ..

أجابها مدير المخابرات فى حدة :

- وما الفارق ؟!

نفثت دخان سيجارتها ، وهى ترفع أحد حاجبيها وتخفضه ، قائلة فى عبث :

- نعم .. وما الفارق ؟!

ثم مالت إلى الأمام ، لتضيف فى صرامة متحدية :

- سأسحقكم جميعًا فى كل الأحوال .

اتسعت عينا الرئيس الأمريكى فى ارتياع ، فى حين انعقد حاجبا وزير دفاعه ، وهو يقول للزعيمة ، فى عصبية لم يستطع إخفاءها :

- هل تعرفين خطورة ما تطلبينه بالضبط ؟!

هزت الزعيمة كتفيها فى لامبالاة ، وهى تجيب :

- بالتأكيد .

اندفعت مستشارة الأمن القومى الأمريكية ، تقول فى حدة :

- لن ننفذ مطلبك هذا ، مهما كان الثمن .

تألقت عينا الزعيمة الغامضة فى سخرية ، وهى تميل إلى الأمام ، وتنفث دخان سيجارتها فى اتجاه الشاشة مباشرة ، قائلة :

- كيف تم اختيارك ؟!

تراجعت المستشارة بحركة حادة ، وهى تهتف :

- كيف ماذا ؟!

أجابتها الزعيمة ، فى مزيج مدهش من الصرامة والسخرية :

- كيف اختارك الرئيس ، كمستشارة للأمن القومى ، بكل ما يملأ نفسك من أحقاد ، وانفعالات ، ومشكلات نفسية وتاريخية .. وعرقية أيضًا .

احتقن وجه المستشارة ، وهى تهتف :

ـ هذا غير صحيح .

تابعت الزعيمة ، وهى تتجاهل مقاطعة المستشارة تمامًا :

ـ أعتقد أنك المسئولة عن كل التعقيدات ، التـى أحدثتهـا (أمريكا) فى العالم ، فى الأعوام الأخيرة ، بسبب مشـكلاتك النفسية .

صرخت المستشارة فى غضب أكثر :

ـ غير صحيح .

أضافت الزعيمة فى جذل ، وكأن ثورة مستشـارة الأمن القومى تروق لها كثيرًا :

ـ والعاطفية القديمة .

امتقع وجه مستشارة الأمن القومى ، وتراجعت بحركـة حـادة كالمصعوقة ، واستدارت بغضب هادر إلى مدير المخـابرات ، الذى انعقد حاجبـاه فـى شدة ، دون أن ينبس ببنت شـفة ، فـأطلقت الزعيمـة الغامضـة ضحكـة عاليـة عابثـة ، قبـل أن تضيف فى سخرية :

ـ إنهـا معلومـة قديمـة ، فـى ملفـك الخـاص عنـدى ، ولا شأن لها بتلك التى يحتفظ بها مدير المخـابرات ، فـى الملف رقم (١٢٦٠٤ / ب) ، فى مكتبه الخاص .

انتفض جسد مدير المخابرات فى عنف ، واتسعت عينـاه عن آخرهما ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل !

أطلقت الزعيمة ضحكة عالية مجلجلة ، تعلن بها سعادتها الجمّة ، مـع حالـة الذهول والارتبـاك ، التـى أحدثتهـا فـى اجتمـاع عـالقة الإدارة الأمريكيـة ، واعتدلت فـى مقعدهـا ، وهـى تهم بقـول شـىء مـا ، إلا أن أزيزًا حـادًا انطلق فـى حجرتها فجأة ، فأدارت عينيها نحو مصدره ، قبـل أن تقول فى وحشية شرسة مباغتة :

ـ سنتم حديثنا فى وقت لاحق .

ومع آخر حروف كلماتها ، انقطع الاتصـال بغتـة ، وانطفـأت شاشة التلفاز الكبير فى المكتب البيضاوى ، فاتسعت عيـون الجميع ، وانسدل عليهم صمت ثقيل لبضع لحظات ، قبـل أن يغمغم وزير الدفاع ، فى عصبية بالغة :

ـ ماذا حدث ؟!

ازدرد مدير المخابرات لعابه فى صعوبة ؛ لترطيب حلقـه الجاف ، قبل أن يجيب بصوت متحشرج :

ـ من الواضح أنها قد تلقّت إنذارًا ما ، أو ...

قاطعه وزير الدفاع فى حدة :

ـ ليس هذا ما أقصده .

هتفت مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

ـ لو أنك تقصد ما أشارت إليه ، بشأن علاقتى العاطفية القديمة ، مع الـ ..

قاطعها وزير الدفاع ، فى حدة أكثر :

ـ ليس هذا ما قصدته أيضًا .

ثم اختنق صوته ، من فرط انفعاله ، وهو يضيف :

ـ كنت أقصد تماديها فى طلباتها ، إلى هذا الحد السخيف .

هز الرئيس الأمريكى رأسه فى قوة ، وضرب سطح مكتبه براحته ، وهو يقول فى حدة :

ـ أنت على حق .. لقد تجاوزت كل الحدود هذه المرة ، بمطلبها الأخير هذا .

هتفت مستشارة الأمن القومى ، وقد احتقن وجهها بشدة ، من فرط الغضب والانفعال ، مما زادها قبحًا ، على نحو عجيب :

ـ لا يمكننا أن نخضع لمطلبها هذه المرة .. لا يمكننا هذا أبدًا .

قال الرئيس فى حدة :

ـ بالتأكيد ، فما تطلبه كفيل بانهيار الاقتصاد الأمريكى كله .

قال وزير الدفاع فى حدة :

ـ وهذا ما تنشده ، وما عبرت عنه بوضوح ، عندما قالت : إنها تنشد السيطرة التامة .

مط مدير المخابرات شفتيه ، وهو يقول :

ـ لقد طلبت مائة مليار أخرى فحسب .

صاحت مستشارة الأمن القومى :

ـ وهل ستسلمها ذهب (فورت نوكس) بهذه البساطة(*) .

هتف الرئيس :

ـ مستحيل !

بدا مدير المخابرات شديد التوتر والعصبية وهو يقول :

(*) فورت نوكس : قلعة أمريكية ضخمة ، فى ولاية (كنتاكى) الأمريكية ، تحتل مساحة مائة وعشرة آلاف فدان من الأرض ، على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من بلدة (لويس فيل) ، وهى تعتبر درع الولايات المتحدة ، عسكريًا واقتصاديًا ، إذ تضم عددًا من مراكز التدريب العسكرية ، بالإضافة إلى كل احتياطى الذهب ، والذى تبلغ قيمته ستمائة مليار دولار ، تحت حراسة قوية للغاية ، ولقد تم اعتبارها الدرع الاقتصادى الأمريكى ، منذ عام ١٩١٨ م .

- وما القوة التى سنستند إليها لرفض مطلبها هذا ؟!

لوّح وزير الدفاع بيده فى حدة ، وهو يهتف :

- سنجد وسيلة .. أية وسيلة ؟!

سأله مدير المخابرات ، فى صرامة عصبية شديدة :

- مثل ماذا ؟!

هتفت مستشارة الأمن القومى فى انفعال :

- لدى فكرة حاسمة ..

قبل أن تكمل عبارتها ، رفع مدير المخابرات سبابته ، فى صرامة شديدة ، وهو يقول :

- ليس هنا .

تطلّع إليه الجميع فى دهشة مستنكرة ، إلا أنه أشار إلى التلفاز الكبير ، وكأنما يذكرهم باختراق الزعيمة لنظم تأمين المكان ، وهو يضيف فى حزم شديد :

- لن يختلف أحدنا على أن هذه الظروف ، التى تمر بها البلاد ، هى قمة حالة الطوارئ ، وفى ظروف كهذه ، تحتم إجراءات الأمن الانتقال إلى موقع آخر .

غمغم الرئيس فى توتر :

- موقع آخر ؟!

شدّ مدير المخابرات قامته ، وهو يجيب فى حزم شديد :

- نعم يا سيادة الرئيس .. لقد حان الوقت ؛ للانتقال من مقاعدنا الرئيسية ، إلى المقاعد الاحتياطية .. فوراً .

ولم ينبس أحدهم ببنت شفة ، أو يرتفع صوت واحد بالاعتراض أو الاستنكار ، فقد اجتمعت عقولهم وقلوبهم على أن مدير المخابرات على حق هذه المرة ..

على حق تماماً ..

أما مدير المخابرات نفسه ، فقد كان ذهنه منشغلاً ، فى تلك اللحظة ، بالبحث عن جواب لسؤال آخر ..

ما طبيعة ذلك الإنذار ، الذى تلقته تلك الزعيمة الغامضة ، والذى جعلها تقطع اتصالها بهم على ذلك النحو ؟!

أى خطر تواجهه فى وكرها الغامض ؟!

أى خطر ؟!

ولم يدر لحظتها ، وهو يعتصر عقله للبحث عن الجواب ، أن الخطر ، الذى جذب اهتمام وانفعال الزعيمة ، كان يتعلق بمصير رجل واحد ..

رجل يحمل لقبًا ، لم يحمله سواه ، فى عالم الجاسوسية والمخابرات كله ..

رجل المستحيل ..

* * *

بكل الحسم والحزم ، جذبت الصينية (تيا) ذراع إطلاق الطوربيد ، وذهنها يتخيل جسد (أدهم) ، وهو ينطلق من أنبوب إطلاق الطوربيدات ، إلى قلب المحيط ، بقوة تكفى لقتله .

بل لتمزيقه إربًا ..

كانت تشعر بشيء من الأسف ، وهى تقدم على هذه الخطوة ، بعد أن تجذبت بشدة لشخصية (أدهم) ، وجرأته ، وشجاعته الفائقة ..

ولكنها كانت تتصور أنها تنفذ أوامر الزعيمة

وفى هذا المضمار ، ليس من حقها أن تدس مشاعرها فى الأمر ..

أو حتى تتردد لحظة واحدة ..

إنها مضطرة للتنفيذ فحسب ..

ودون أدنى مناقشة ..

لذا فقد جذبت الذراع فى حزم وحسم ، و ...

« ما الذى تفعلينه بالضبط يا (تيا) ؟! »

انطلق صوت الزعيمة بغتة ، بذلك السؤال الصارم ، عبر مكبر صوتى محدود ، داخل قاعة إطلاق الطوربيدات ، فاعتدل الرجلان الضخمان بحركة حادة ، وشدا قامتيهما ، وكأنها تقف أمامهما مباشرة ، فى حين ارتبكت (تيا) فى شدة ، وهى تقول :

ـ أنفذ الأوامر أيتها الزعيمة .

سألتها الزعيمة فى صرامة باردة :

ـ أوامر من ؟!

ارتبكت (تيا) أكثر ، وهى تقول :

ـ أوامرك أيتها الزعيمة .. الأوامر الخاصة بالخطة (ب) .

بدا صوت الزعيمة عنيفًا قاسيًا ، وهى تقول :

ـ وهل أصدرت لك هذه الأوامر بنفسى يا (تيا) ؟

خيّل للصينية الحسناء أن المكان يميد بها ، وهى تجيب :

ـ كلا أيتها الزعيمة .. لقد أبلغنى بها قائد قواتك ، و ...

قاطعتها الزعيمة ، فى شراسة مخيفة :

ـ أبلغك بها ؟

ـ هل نسيت القاعدة رقم واحد هنا أيتها الحقيرة ؟

شعرت (تيا) بركبتيها ترتجفان ، من شدة رعبها ، حتى أنها سقطت عليهما ، وهى تهتف :

ـ الرحمة .. الرحمة .

ولكن الزعيمة تابعت فى وحشية :

ـ الأوامر ينبغى أن تصدر منى فقط .. لا أحد ينفذ أمرًا واحدًا ، ما لم يتلقاه منى شخصيًا .

كرّرت (تيا) فى انهيار :

ـ الرحمة أيتها الزعيمة .. الرحمة .

بدت الزعيمة أشبه بعاصفة من الغضب والثورة ، وهى تكمل ، وكأنها لم تسمع توسلات (تيا) :

ـ وتجاوز هذه القاعدة ، سيواجه دومًا بمنتهى الحزم والقوة .

ارتجف الرجلان المسئولان عن حجرة الطوربيدات ، على الرغم من ضخامتهما ، والقوة البادية على جسديهما ، وأحدهما يهتف :

ـ لقد تصورنا أنها أوامرك أيتها الزعيمة .. أقسم لك .

تجاهلت الزعيمة القاسية هتافه ، وهى تقول بلهجة صارمة آمرة :

ـ أخرجوا رجل المخابرات المصرى ، من أنبوب إطلاق الطوربيد .

امتقع وجه الصينية الفاتنة ، حتى بدا وكأنه يخلو من الحياة تمامًا ، وهى تقول مرتجفة :

ـ ولكن .. ولكننى جذبت ذراع الإطلاق أيتها الزعيمة .

أجابتها الزعيمة ، فى برود قاس رهيب :

ـ لا شىء يمكن أن يعمل هنا ، إلا بعد موافقتى شخصيًا .

ثم أضافت بصيحة هادرة :

ـ أخرجوه .

انتفض الضخمان ، وهما يندفعان نحو كوة الطوربيد ، وفتحها أحدهما فى سرعة ، وهو يردّد مرتجفًا :

ـ لم تكن تعمل .. أقسم لك ، ثم إن ..

قالها ، وهو يفتح الكوة عن آخرها ، و ...

وبتر عبارته دفعة واحدة ..

واتسعت عيناه عن آخرهما بذهول .. وكذلك فعل رفيقه ..

وفعلت (تيا) ..

فأمام عيونهم جميعًا، وعلى الرغم من تجاوز هذا، لكل قواعد العقل والمنطق، كان أنبوب إطلاق الطوربيد خاليًا .. خاليًا تمامًا.

* * *

٢ـ البطـــل ..

بدا التوتر واضحًا، على وجه قائد أمن البيت الأبيض، وهو يلقى نظرة على ساعته، ثم يدير عينيه إلى باب حجرة مكتب الرئيس، قائلاً لمساعده:

ـ لقد طال الاجتماع أكثر مما ينبغى.

غمغم مساعده:

ـ الأمر خطير للغاية، ومن الطبيعى أن يستغرقوا وقتًا طويلاً للغاية؛ لدراسته، واتخاذ القرارات بشأنه.

قال قائد الأمن، فى شىء من العصبية:

ـ ليس إلى هذا الحد.

نطقها، واتجه نحو حجرة المكتب، فتنحنح مساعده فى توتر، وهو يقول فى عصبية:

ـ معذرة يا سيدى، ولكن الأوامر ..

زمجر قائد الأمن؛ ليقاطعه، وهو يواصل تحركه نحو مكتب الرئيس، قائلاً فى صرامة شرسة:

ـ الأوامر تختلف، فى مثل هذه الظروف الطارئة.

كان يمد يده بالفعل إلى مقبض الباب ، عندما ارتفع رنين هاتفه المحمول فجأة بنغمة خاصة للغايـة ، جعلتـه يتوقف ، ويلتقطه من جيبه فى سرعة ، مغمغمًا :

ـ عجبًا .. ولماذا ..

وقبل أن يتم تساؤله ، ضغط زر الاتصال ، وشد قامته ، قائلاً بلهجة حاسمة ، وصوت قوى :

ـ أوامرك يا سيادة مدير المخابرات .

أتاه صوت مدير المخابرات ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اتخذ كل إجراءات الطوارئ البديلـة يا رجل ، والخاصـة بخطة استمرار الحكومة(*) ..

انعقد حاجبا قائد أمن البيت الأبيض فى شدة ، وسرت فى جسده ارتجافة عنيفة متوترة ، وهو يشد قامتـه ، فى وقفـة عسكرية صارمة ، وهو يقول فى قوة :

ـ خطة استمرار "حكومة ؟! هل ..

(*) خطة استمرار الحكومة ، هى خطة احتياطية دقيقة ، تعتبرها كل الدول من أدق أسرارها وأخطرها ، وهى تعتمد على حماية رئيس الدولة والوزراء ، وكبار القادة العسكريين ، وقادة المخابرات ، فى ظروف الطوارئ القصوى ، أو عند اندلاع حروب مفاجئة ، ولقد تم تنفيذها فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر ، عام ٢٠٠١ م ، مع ضربة مركز التجارة العالمى ، فى (أمريكا) .

كان يريد أن يتساءل : هل بلغت الأمور هذا الحد ؟! ، إلا أنه كتم بقى السؤال فى أعماقه ، وقال بلهجة عسكرية حازمة :

ـ سأتخذ كل الإجراءات فورًا يا سيدى .. سأجرى اتصالى بالهليكوبتر الخاصة ، لنقل سيادة الرئيس ، و ...

قاطعه مدير المخابرات فى صرامة :

ـ لقد تم نقل الرئيس والمسئولين بالفعل ، إلى مقر قيادة الطوارئ .

انتفض جسد قائد الأمن فى عنف ، وهو يهتف :

ـ تم نقلهم ؟! ولكن كيف ؟! المفترض أن ..

قاطعه مدير المخابرات مرة أخرى ، فى صرامة أكثر :

ـ انس كل ما تعرفه عن خطة استمرار الحكومة الأصلية .. لقد قمنا بتنفيذ الخطة (ب) .

عاد جسد قائد الأمن ينتفض ، فى غضب هادر هذه المرة ، وازداد انعقـاد حاجبيـه ، حتـى كـادا يمتزجـان ، وهو يهتـف مستنكرًا :

ـ الخطة (ب) ؟!

أجابه مدير المخابرات :

ـ نعم .. الخطة (ب) .. إنها خطة خاصة وبالغة السرية ، بحيث لا يعلمها سوى الرئيس وأنا فقط .

سأله قائد الأمن ، وهو يعض شفته السفلى ، حتى كاد يدميها :

ـ وماذا عن وسيلة الانتقال ؟! إننا نحيط بالمكان كله ، ولم ..

قاطعه مدير المخابرات فى صرامة :

ـ ليس هذا من شأنك .. اتخذ باقى الإجراءات فحسب .. هل تفهم ؟!

غمغم قائد الأمن فى مقت :

ـ نعم .. أفهم .

أنهى المحادثة ، وأعاد هاتفه المحمول إلى جيبه ، وهو يلتفت مرة أخرى إلى مقبض باب المكتب البيضاوى ، فسأله مساعده فى قلق :

ـ ماذا هناك ؟

صمت قائد الأمن لحظة ، قبل أن يدير المقبض فجأة فى صرامة ، وهو يقول فى حزم :

ـ بل ماذا هنا ؟

فتح باب الحجرة بحركة حادة ، وهو يتحسّس المسدس المعلّق تحت إبطه ، على نحو غريزى ، وعاد حاجباه ينعقدان بشدة ، وهو يدير عينيه فى الحجرة الخالية تمامًا ، قبل أن يلحق به مساعده ، ويهتف بكل الدهشة :

ـ أين ذهب الرئيس ؟! أين ذهب الجميع ؟!

أجابه قائد الأمن فى صرامة :

ـ الوحيد الذى يمكنه إجابة السؤال ، هو المهندس الذى صمّم ونفّذ الأنفاق السرية هنا .

هتف مساعده بكل الانفعال :

ـ أنفاق سرية ؟! هنا .

عاد قائد الأمن يدير عينيه فيما حوله ، وهو يجيب فى غضب :

ـ نعم .. هنا .. هذا هو التفسير الوحيد .. هناك نفق سرى ، فى مكان ما هنا .

ثم شد قامته مرة أخرى ، وقال بلهجة آمرة صارمة :

ـ هيا .. أطلق صفارة الإنذار الصامتة الكبرى .. لقد بدأت خطة استمرار الحكومة بالفعل .

امتقع وجه مساعده ، وهو يهتف :

ـ خطة استمرار الحكومة ؟! يا إلهى !

ثم اندفع لتنفيذ الأمر ، فى حين بقى قائد الأمن داخل الحجرة ، يدير عينيه فيها عدة مرات ، قبل أن يغمغم فى سخط :

ـ لقد أجادوا اللعبة هذه المرة .

قالها ، وعاد يلتقط هاتفه المحمول ، ويضغط أزراره فى سرعة ، وهو يضيف :

ـ وينبغى إبلاغ هذه المعلومة فورًا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كانت مستشارة الأمن القومى تقول فى عصبية ، داخل مقر القيادة الاحتياطى ، فى مكان ما ، تحت العاصمة (واشنطن) :

ـ صاروخ .. الحل يكمن فى صاروخ .

تطلع إليها الجميع فى دهشة ، وسألها الرئيس ، فى حيرة عصبية :

ـ صاروخ ؟! ماذا تعنين بالضبط ؟!

لوحت بذراعها فى حدة ، وهى تقول :

ـ تلك الحقيرة تعتمد ، فى قوتها كلها ، على قمر الدفاع ، الذى سيطرت عليه بوسيلة ما ، والذى تستغل مدفعه الليزرى لسحق أهدافنا ، وإجبارنا على الخضوع لها .. الحل الأمثل إذن ، هو أن نطلق صاروخًا ، يحمل رأسًا نوويًا نحو ذلك القمر الدفاعى ، لننسفه نسفًا ، فلا تعود لديها أية قوة لمواجهتنا .

التقى حاجبا وزير الدفاع ، وهو يقول فى حماس :

ـ فكرة رائعة .

وتساءل الرئيس فى لهفة :

ـ وهل يمكننا تنفيذها ؟!

أجابه وزير الدفاع بنفس الحماس :

ـ أعتقد أن لدينا كل ما يصلح للتنفيذ .. وخلال يومين فحسب ، فقد كنا نستعد بالفعل لإطلاق قمر صناعى جديد ،

للاتصالات الرقمية المجسَّمة ، ويمكننا أن نستبدل القمر بصاروخ يحمل رأسًا نووية ، أو حتى نصف نووية ، فى سرية تامة ، وإطلاقه وفقًا لمساره السابق ، بحيث ينفصل الصاروخ ، فور عبوره الغلاف الجوى ، ويتم توجيهه عن بعد ، من قاعدة سرية أرضية ، لينطلق نحو القمر الصناعى الدفاعى ، وينسفه نسفًا .

هتف الرئيس ، وقد انتقل إليه الحماس :

- عظيم .. فلنقم بالتنفيذ فورًا .

التقى حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول فى حزم :

- رويدك يا سيادة الرئيس .. الأمر ليس بهذه البساطة التى تتصورونها .

استدار إليه الثلاثة فى حدة ، وهتفت مستشارة الأمن القومى فى حدة :

- ولماذا أيها العبقرى ؟

أجابها فى صرامة :

- لأن الخطة كلها تعتمد على السرية .

قال وزير الدفاع فى غضب :

- هذا أمر طبيعى .. أليس كذلك ؟

أشار إليه مدير المخابرات فى صرامة ، قائلاً :

- بلى ، وهنا تكمن خطورة الموقف وتعقيداته .

سأله الرئيس فى قلق :

- ما الذى تعنيه بالضبط يا رجل ؟

استدار إليه مدير المخابرات ، مجيبًا :

- أعنى أن هذه هى نقطة قوتها بالتحديد .. الأسرار .. إنها تصل إلى كل ما نعتبره أسرارنا العليا ، فى بساطة تثير دهشتى وجنونى ، ولو أننا أردنا محاربتها ، بأسلوب نضفى عليه السرية ، فمن المحتم أن نعرف أولاً منطقة التسرُّب فى معلوماتنا .. لابد وأن ندرك من أين تحصل على كل ما تعرفه .. وكيف .. بدون هذا سنجازف بإثارة جنونها ، ودفعها إلى المزيد من العنف والشراسة فحسب .

قالت مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

- هل تقترح أن نستسلم لمطالبها ، ونسلمها مائة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) ؟

عقد مدير المخابرات كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ بل أقترح ألا نفقد أعصابنا ، ونبدأ فى التصرف بحماقة وسخافة ، أو بعجرفة وغطرسة ، لا تستندان إلى قوة حقيقية ، أو حتى معرفة كافية .

صاحت فى غضب :

ـ من تقصد بقولك هذا بالضبط ؟

أوقفها الرئيس بإشارة عصبية من يده ، قبل أن يسأل مدير المخابرات فى قلق متوتر .

ـ ما الذى تقترحه بالضبط الآن ؟!

شد مدير المخابرات قامته فى اعتداد ، وهو يقول :

ـ أقترح أن ندخل معها فى مفاوضات طويلة ، وأن نتظاهر بالخضوع لمطلبها ، بعد مساومات مرهقة ، حتى نكسب الوقت الكافى ، الذى يسمح لحلفائنا بالتحرك ، على نحو لايمكن أن تدركه تلك الغامضة أو تكشفه .

بدت الدهشة على وجه الرئيس ، وانعقد حاجبا وزير الدفاع فى شدة ، فى حين قالت مستشارة الأمن القومى ، فى دهشة مستنكرة :

ـ حلفاؤنا ؟! من تعنى ؟! المصريين ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ كلا .. بل حلفاء من طراز آخر .. طراز يمكنه التعامل مع تلك الغامضة ، بنفس الأسلوب والوسائل .

تبادل الثلاثة نظرة حائرة متوترة ، قبل أن يتساءل وزير الدفاع ، فى حذر عجيب ، لم يكن له ـ عندئذ ـ ما يبرّره :

ـ من تقصد بالضبط ؟!

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب فى حزم ، لم يخل من توتر ملحوظ :

ـ (X) .. منظمة مستر (X) ..

وكانت مفاجأة مذهلة ..

للجميع ..

* * *

« فراغ معادلة الضغط أيها الأغبياء .. »

انبعث صوت الزعيمة الغامضة ، فى هدوء عجيب ، أقرب إلى الجذل ، وهى تراقب على شاشتها الخاصة ، ذلك الذهول الذى ارتسم على وجوه الجميع ، فى حجرة الطوربيدات ، و ...

وقبل أن تتم عبارتها ، انطلق الإعصار ..

إعصار يُدعى (أدهم صبرى) وثب بجسده المرن ، فى رشاقة مدهشة ، من فراغ علوى محدود ، فى قمة أنبوب إطلاق الطوربيد ، وهو يندفع خارجه ، قائلاً فى سخرية :

- استمعوا إلى زعيمتكم أيها الأوغاد .

وانقضت قبضة كالقنبلة ، على فك أقرب الضخمين إليه ، ثم دار حول نفسه ، ليركل الثانى فى معدته ، مستطرداً بنفس السخرية :

- فمن الواضح أنها تختلف عنكم كثيراً .

واندفعت قبضته الثانية ، كمطرقة من الصلب ، تحطم أنف الرجل الثانى ، وتلقيه أرضاً فى عنف ، مع إضافته :

- إنها تفكر .

تراجعت (تيا) بحركة حادة ، وانعقد حاجباها فى شدة ، عندما شاهدت الرجلين ضخمى الجثة يهويان أرضاً فاقدى الوعى و(أدهم) يعتدل فى هدوء وثقة ، ويواجهها بابتسامة ساخرة كبيرة ، وهو يقول :

- معذرة أيتها الفاتنة ، ولكننى أردت أن تكون وحدنا فحسب .

ازداد انعقاد حاجبيها فى سخط ، فى حين لوّح هو بذراعه ، فى حركة مسرحية ، قائلاً :

- هذا لا يشمل زعيمتك بالطبع ، فمن الواضح أنها تراقب كل مكان ، فى غواصتها الشبيهة بلُعب (ديزنى لاند)[*] هذه .

تألقت عينا الزعيمة فى جذل عجيب ، وهى تستمع إليه ، وتراقب جسده القوى الممشوق على الشاشة ، وأشعلت واحدة من سجائرها الحمراء الطويلة فى تلذُّذ ، دون أن تُعلق على قوله بحرف واحد ، فى حين قالت (تيا) ، فى صوت غاضب صارم :

- لا تتباه كثيراً بما فعلته يا سيِّد (أدهم) ، فلقد باغتَّ الرجلين فحسب .

رفع (أدهم) أحد حاجبيه وخفضه ، فى حركة عابثة ساخرة ، وهو يقول :

- حقاً ؟!

(*) ديزنى لاند : أكبر مدينة ترفيهية فى العالم ، أنشأها مخرج الرسوم المتحركة الشهير (والت ديزنى) ، فى ولاية (كاليفورنيا) الأمريكية ، ثم أنشئت مدينة أخرى ، بالاسم نفسه ، فى ولاية (فلوريدا) ، وأخيراً أضيفت الثالثة فى (فرنسا) .

تحركت فى رشاقة حذرة، لتدور حول الرجلين فاقدى الوعى، وهى تقول، فى مقت واضح :

- لقد قرأت ملفك كله يا سيد (أدهم)، وعلمت أن سر قوتك يكمن فى تلك التجربة الفريدة، التى قام بها والدك الراحل، عندما بدأ فى إعدادك كرجل مخابرات، منذ كنت فى الثالثة من عمرك .

أثار قولها شجونًا فى أعماقه، إلا أن هذا لم يطف قط على سطح مشاعره، وإنما ظل محتفظًا بابتسامته الساخرة، وهدوئه الشديد، وعيناه تتابعان حركتها بمنتهى الدقة، وهى تنزع أحد حذاءيها بقدمها الأخرى، متابعة بنفس المقت الساخط :

- ولقد أدركت، عندما قرأت ذلك الملف، أننا نتشابه كثيرًا فى الواقع .

هزّ كتفيه، وتابع مراقبته لها، وهى تنزع حذاءها الثانى، قائلاً :

- رباه ! أأنا فاتن إلى هذا الحد ؟!

تابعت، دون أن تتوقف عند تعليقه الساخر :

- فأنا أيضًا بدأت تدريباتى قبيل الثالثة من عمرى، ولكن تدريباتى اقتصرت على أمر واحد .

ثم اتخذت فجأة وقفة قتالية متحفزة، وهى تضيف فى حدة :

- القتال .

هزّ كتفيه مرة أخرى، دون أن تتغيّر وقفته الهادئة، وهو يقول :

- يا لها من قصة مؤثرة ! إننى أبذل جهدًا شديدًا، حتى لا تنهمر دموعى فى الواقع .

عاد حاجباها ينعقدان فى صرامة، وهى تقول :

- ومن يبالى بدموعك يا سيد (أدهم) .

ثم وثبت نحوه فجأة، صائحة :

- إننى أنشد دمك .

كانت وثبتها مرنة إلى حد مدهش، وبدا جسدها قويًا إلى حد عجيب، وهى تنهى صيحتها بصرخة قتالية قوية، مع انقضاضتها العنيفة المدروسة، وقدمها تندفع نحو وجه (أدهم) مباشرة ..

كان هجومًا قويًا، وقاتلًا، مدروسًا، كفيلاً بإسقاط أى مقاتل محترف، إلا أن (أدهم) مال برأسه فى سرعة وخفة، فتجاوزته

قدم (تيا) ، التى دارت حول نفسها فى الهواء ، فى سرعة مدهشة ، وعكست اتجاه ساقيها ، فى مرونة مذهلة ، لتحيط عنق (أدهم) بقدميها ، وهى تطلق صرخة قتالية أخرى ، ثم تنثنى بجسدها كله ؛ لتلوى عنقه بقوة ..

ولكن قبضتى (أدهم) ارتفعتا فى سرعة ، وقبضتا على كاحليها ، وأدارتهما فى قوة ، وهو يقول ساخرًا :

ـ حركة بارعة يا فاتنتى .

وتراجع برأسه فى مهارة مذهلة ، قبل أن تثب قدماه فى الهواء ، وتحيطان وسطها ، ثم يدور جسده كله ، ليلقى بها عبر حجرة الطوربيدات ، مستطردًا :

ـ ولكنها لا تكفى لنيل دمى .

ارتطم جسد (تيا) بجدار الحجرة فى قوة ، ولكنها هبطت على قدميها فى خفة ، وانقضت فورًا على (أدهم) ، دون أن تطلق صرختها القتالية هذه المرة ..

وبحركة رشيقة ، وثبت إلى أعلى ، فرفع (أدهم) ذراعه لصد هجومها ، إلا أن جسدها هبط على نحو مباغت ، قبل أن ينزلق جسدها كله ، وتحيط ساقيها بساقيه ، ثم تدور حول نفسها فى قوة وسرعة ..

واختل توازن (أدهم) هذه المرة ، وكاد يسقط أرضًا ، لولا أن تشبث بأحد المواسير القوية ، الملاصقة للجدار ، ثم وثب إلى أعلى ، وركل (تيا) فى صدرها ، قائلاً :

ـ حركة بارعة بالفعل يا فاتنتى .

سقطت (تيا) أرضًا مرة أخرى ، ووثبت واقفة على قدميها فى سرعة وخفة ، وهى تقول فى مقت :

ـ أتعلم ما مشكلتك بالضبط يا سيِّد (أدهم) ؟!

ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ كلاَّ .. أخبرينى أنت يا طبيبتى النفسية .

اتخذت وقفة قتالية جديدة ، وهى تقول :

ـ أنت تتحدَّث طوال الوقت ، وهذا يستهلك الكثير من أنفاسك ، ويقلِّل قدرتك على القتال .

أطلق ضحكة ساخرة قصيرة ، قبل أن يقول :

ـ رباه ! كيف لم أنتبه إلى هذا ، طوال كل عملياتى السابقة الناجحة !

صرخت فى غضب :

ـ أيها المغرور .

وقرنت صرختها بوثبة قتالية مدهشة ، ارتفع لها حاجبا الزعيمة ، فى مزيج من الدهشة والإعجاب ، وهى تغمغم :

- رائع يا (تيا) .

كانت وثبتها بالفعل مزيج من الخفة ، والرشاقة ، والمرونة ، والبراعة ، والقوة ، والدهاء أيضاً ، فقد انقضت بقدميها على منتصف جسد (أدهم) ، لتدفعه إلى اتخاذ وقفة دفاعية خاصة ، ثم دفعت قدميها فجأة إلى أعلى ، ليدور جسدها كله حول نفسه ، ثم تنقض قبضتها نحو عنقه مباشرة ، على نحو مباغت للغاية ..

وفى عالم القتال اليدوى ، يمكن أن تعتبر هذه الحركة نصراً حاسماً حتمياً ، نظراً لأن سرعة الاستجابة البشرية لا تسمح لأى مقاتل متفوق ، بتغيير وضعه الدفاعى فى اللحظة الأخيرة ، للتصدى لضربة كهذه ..

ضربة كفيلة بتحطيم عنقه فوراً ..

بل سحقه سحقاً .

ولكن (أدهم) لم يكن مقاتلاً عادياً ..

لقد كان يختلف ..

يختلف كثيراً ..

فما أن أدرك أنه يواجه خصماً يفوق المعتاد ، حتى تبنى سياسة قتالية جديدة ، تتناسب مع موقفه ، وقوة خصمه ..

فعندما وثبت (تيا) نحوه ، لم يتخذ وقفة قتالية على الإطلاق ..

فقط تابع انقضاضتها بعين كالصقر ، وعقل كالصاروخ ، وذهن يقظ متحفز ..

وعندما أبدلت اتجاه حركتها ، بتلك البراعة المذهلة ، أدرك هدفها الحقيقى ، فى جزء من الثانية ..

واتخذ وقفته الدفاعية الصحيحة فى جزء ثان ..

ثم حوّل الموقف ، من الدفاع إلى الهجوم ، فى الجزء الثالث من الثانية ..

وفى نفس اللحظة ، التى بلغت فيها قبضة (تيا) عنقه ، ارتفعت يده اليسرى بسرعة البرق ؛ لتزيح قبضتها عنه ، ثم دار جسده كله حول نفسه ، ليهوى مرفقه الأيمن على فكها كالقنبلة ، ويطيح بها بعيداً بمنتهى العنف ..

وعلى الرغم من قوة الضربة وعنفها ، لم يكد جسد (تيا) يسقط أرضاً ، حتى هبت واقفة على قدميها ، و ...

وفوجئت بـ (أدهم) أمامها مباشرة ، وأصابعه الفولاذية تقبض على معصمها ، ثم تدير ذراعها مع جسدها كله ، بحيث كبّل حركتها ، وألصق وجهها بالجدار المعدنى البارد ، وهو يقول ساخرًا :

ـ أتعرفين ما مشكلتك أنت يا فاتنتى ؟

صرخت ، وهى تقاتل للتخلّص من قبضتيه القويتين :

ـ إننى أبغضك .

قال فى هدوء قاس :

ـ هذه هى مشكلتك بالضبط .

دفع معصمها الأيسر نحو قبضته اليمنى ، التى تمسك معصمها الأيمن ، ثم أفلت المعصم الأيسر ، ليقبض على المعصمين معًا بقبضته اليمنى ، فى سرعة وقوة ، وبأصابع فولاذية ، عجزت (تيا) عن التخلص منها أو مكافحتها ، وهو يتابع :

ـ إنك لا تقاتلين فحسب ، ولكنك تقحمين مشاعرك أيضًا فى القتال ، وهذا يفقدك التركيز المناسب .

حاولت جاهدة أن تضربه بقدميها من الخلف ، إلا أنه اتخذ وقفة محترفة ، تمنعها من تحقيق ما تنشد ، فصرخت فى بغض :

ـ إنك لن تفعل شيئًا .. قلت لك : إننى قد قرأت ملفك كله .. أنت لا تضرب النساء ، وهذه واحدة من نقاط ضعفك القوية .

هزّ كتفيه ، قائلاً ، وهو يضغط بيده اليمنى على جانب عنقها :

ـ ومن قال إننى أفكّر حتى فى ضرب فاتنة مثلك .

شعرت باحتقان فى وجهها ، وبتلاحق فى أنفاسها ، فصرخت :

ـ ماذا تفعل بى ؟

أجابها فى هدوء عجيب :

ـ إنه شريانك العنقى يا عزيزتى .. مصدر التغذية الدموية الرئيسى لخلايا مخك .. إننى أضغط على جزء خاص منه ، بحيث تقل الدماء التى تصل إلى المخ .. أتعلمين ما الذى يمكن أن يؤدّى إليه هذا ؟

صرخت ، وهى تقاوم دوران رأسها فى استماتة :

ـ أيها الـ ..

وقبل أن تتم صرختها ، أظلمت الدنيا أمامها بغتة ، وسقطت بين ذراعيه فاقدة الوعى ..

وفى نفس اللحظة ، وبجذل واضح ، هتفت الزعيمة ، عبر أجهزة نقل الصوت فى الحجرة :

ـ رائع يا (أدهم) .. هذا ما كنت أتوقعه بالضبط .. لقد كان المشهد رائعًا بحق .. إنك لم تتغير كثيرًا عما سبق .

أرقد (أدهم) (تيا) أرضًا فى رفق ، وهو يقول :

ـ أيعنى هذا أننا قد تعارفنا من قبل ؟!

أجابته فى هدوء جذل :

ـ بالتأكيد .

نهض ، قائلاً :

ـ لماذا لا أتعرف صوتك السخيف إذن ؟!

أطلقت ضحكة عابثة قصيرة ، قبل أن تقول :

ـ التكنولوجيا تطوّرت كثيرًا ، فى الآونة الأخيرة يا (أدهم) .

ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ المشكلة أن إتلافها ما زال يحتاج إلى الجهد نفسه .

أطلقت الزعيمة ضحكة عابثة أخرى ، وهى تقول :

ـ لن يتلفها أحد هذه المرة يا (أدهم) .. ربما يذكّرك الأمر بأفلام (جيمس بوند) ، كما أخبرت (تيا) من قبل ، ولكن الواقع يختلف كثيرًا عن أفلام السينما ، يا رجل المخابرات المصرى .. ففى عالمى ، ليس من الضرورى أن ينتصر البطل فى النهاية ، خاصة وأننى أسيطر على الأمور تمامًا هذه المرة .

بدا عليه الاهتمام ، وهو يقول :

ـ حديثك يشير إلى أنها ليست المرة الأولى ، ومخاطبتك لى بلا ألقاب ، يعنى أن كلينا يعرف الآخر جيدًا .

طالت ضحكتها العابثة هذه المرة ، وامتدت سبابتها إلى زر صغير أمامها ، وهى تقول :

ـ رائع .. ها أنتذا تنتقل ، فى سرعة مدهشة ، من دور (جيمس بوند) ، إلى دور (شيرلوك هولمز) .

قالتها ، ثم ضغطت الزر الصغير فى حزم ، مستطردة :

- ولكننى ، وأيًا كانت الشخصية التى تلعبها ، مازلت أسيطر على الأمور تمامًا .

مع ضغطة الزر ، انطلق فى حجرة الطوربيد صوت أشبه بصاعقة كهربية محدودة ، و ...

« محاولة جيدة يا زعيمة الأوغاد .. »

نطق (أدهم) العبارة فى سخرية ، فاحتقن وجهها بشدة ، وكادت تسعل مع إطلاق دخان سيجارتها فى قوة ، وعيناها تحدقان فى صورته على شاشتها بكل الدهشة ، فى حين أشار هو إلى أنبوب إطلاق الطوربيد ، متابعًا :

- ولكننى ، وأثناء مرحلة التأمل الإجبارية ، داخل هذا الأنبوب اللطيف ، أدركت أنك قد أضفت جهازًا صاعقًا آخر إلى ملابسى ، ولم يكن من العسير أن أكشف وجوده فى حزامى ، الذى تخلصت منه ، وتركته خلفى هناك .

التقى حاجباها ، وهى تلتقط نفسًا عميقًا ، من سيجارتها الحمراء الطويلة ، وتواصل التطلع إليه على الشاشة ، فأضاف هو ، فى سخرية مستفزة :

- والآن دعينا نتحدث مرة أخرى عن السيطرة الكاملة .

التقطت نفسًا عميقًا ؛ للسيطرة على مشاعرها وانفعالاتها ، وألقت سيجارتها بعيدًا ، وهى تقول ، بأكبر قدر استطاعته من الهدوء :

- بمناسبة الحديث عن المشكلات .. مشكلتى أنا أننى عنيدة للغاية يا عزيزى (أدهم) ، ومازلت أصر على أننى أمتلك السيطرة الكاملة هذه المرة .

قالتها ، وجذبت ذراعًا صغيرًا أمامها ، فانزلقت جدران معدنية فجأة ؛ لتغلق كل مداخل ومخارج حجرة الطوربيدات ، فى نفس اللحظة التى انفتحت فيها مجموعة فتحات عديدة ، فى جدار الحجرة ، وانطلق منها صوت أشبه بالفحيح ..

صوت أدرك (أدهم) ماهيته على الفور ..

فذلك الفحيح ، كان يعنى أن الزعيمة تطلق نوعًا من الغاز ، عديم اللون والرائحة ، داخل حجرة الطوربيدات المعزولة ..

ومع ذلك الغاز ، امتلأت الحجرة برائحة رهيبة مخيفة ..

رائحة الموت .

* * *

٢- وجه العالم..

امتلأت نفس الرئيس الأمريكي بتوتر غير محدود ، وهو يجلس أمام جهاز اتصال خاص ، في مقر القيادة السري ، وقال في عصبية واضحة ، وهو يلوّح بذراعه في حدة :

- لست أصدق هذا .. أنا .. رئيس أقوى دولة في العالم ، وزعيم النظام العالمي الجديد ، أجلس هنا ، في انتظار الاتصال بزعيم منظمة من منظمات الجاسوسية الخاصة ؟!

غمغم مدير المخابرات في توتر مماثل :

- المضطر يركب الصعب يا سيادة الرئيس .

اندفعت مستشارة الأمن القومي ، تقول في حدة :

- ولماذا الرئيس بالذات ؟! لماذا لا يجري الاتصال أي أحد منا .

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا ، وقال في عصبية :

- مستر (X) يصرّ على هذا .

قال وزير الدفاع في غضب :

- وهل من الضروري أن نخضع له أيضًا ؟!

قال مدير المخابرات في صرامة :

- وماذا لدينا لنخسره ؟!

صاحت مستشارة الأمن القومي :

- كرامتنا .

التفت إليها مدير المخابرات ، قائلاً في حدة مماثلة :

- حقًا ؟!

لوّحت بذراعها بدورها ، هاتفة :

- ما تبقى منها على الأقل ؟!

أشار مدير المخابرات إلى الشاشة ، قائلاً في صرامة :

- ما نفعله الآن هو محاولة للحفاظ على ما تبقى من كرامتنا بالفعل .. ألا يمكنك إدراك هذا .

كانت تشتبك معه في معركة كلامية ، لولا أن صاح الرئيس في عصبية شديدة :

- كفى .. كفى .

لاذ جميعهم بالصمت ، وانعقد حاجبا مستشارة الأمن القومي في غضب ، وهي تلتصق بالجدار في حنق ، في نفس الوقت

الذى ارتفع فيه أزيز خافت ، من جهاز الاتصال الخاص ، فاعتدلت المستشارة فى سرعة ، وهى تقول فى عصبية :

ـ هل بدأ الاتصال ؟!

أشار إليها مدير المخابرات أن تصمت ، فى حين تنحنح الرئيس ، واعتدل فى مجلسه ، فى توتر ملحوظ ، وتطلع إلى شاشة جهاز الاتصال ، التى أضيئت بغتة ، وظهر عليها وجه مستر (X) الغارق فى الظلمة كالمعتاد ، وهو يقول بصوت عميق ، تدخلت التكنولوجيا لتغييره ، ومنحه رنيناً آلياً عجيباً :

ـ مرحباً يا سيادة الرئيس .

تنحنح الرئيس مرة أخرى ، وهو يقول ، دون أن ينجح فى إخفاء توتره :

ـ ما الذى تعرضه علينا بالضبط يا مستر (X) ؟

أجابه مستر (X) فى سرعة ، وكأنما يتوقَّعُ السؤال وينتظره :

ـ المعلومات .

انعقد حاجبا مستشارة الأمن القومى فى حنق ، وهى ترمق مدير المخابرات بنظرة قاسية ، فى حين تساءل الرئيس بنفس التوتر :

ـ أية معلومات ؟!

أجابه مستر (X) فى حزم :

ـ المعلومات التى تلزمكم ، للتغلب على تلك الحقيرة .

بدا الاهتمام على وجوه الجميع ، والرئيس يسأله :

ـ وهل تملك هذه المعلومات بالفعل ؟!

صمت مستر (X) لحظة ، ثم قال :

ـ إلى حد ما .

صدمت عبارته أسماعهم ، وقالت مستشارة الأمن القومى فى حدة :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

وفى الوقت نفسه تقريباً ، اندفع وزير الدفاع ، يتساءل فى عصبية :

ـ وما مصلحتك فى التعاون معنا ؟!

تراجع مستر (X) فى مقعده ، وإن لم يخرج وجهه من دائرة الضوء ، وشبك أصابعه أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدتى ، ولكن توضيح الأمور يحتم إجابة سؤال الوزير أولاً .

لم يبد أن جوابه هذا قد راقها ، إلا أنهـا تراجعت ، قائلة في عصبية :

ـ فليكن .

أما الباقون ، فقد أرهفوا أسماعهم في اهتمام ، ومستر (X) يجيب :

ـ الواقع أن مصلحتي تفوق مصلحتكم في هذا الشأن ، وإن أوحت الأمور بالعكس ، فتلك الحقيرة بنت إمبراطوريتها كلها ، على حطام إمبراطوريتي .. أو جزء منها على الأقل .

غمغمت مستشارة الأمن القومي في عصبية :

ـ لست أفهم هذا .

قال مدير المخابرات في صرامة :

ـ أنا أفهمه .

استدارت إليـه بحركة محتدة غاضبـة ، إلا أنـه تجاهلها تمامًا ، وتابع حديث مستر (X) الذي استطرد ، وصوتـه يحمل رنة غضب واضحة :

ـ لقد باغتتني بهجوم ساحق ، في مقري السري ، الذي كنت أتصور أن أحدًا لن يكشف أمره أبدًا ، ولكنها استخدمت تكنولوجيا شديدة التطور ؛ لتعقب إشارة الاتصال ، وتحديد موقعي بدقة .

مطّت المستشارة شفتيها ، وقالت في ازدراء :

ـ إذن فقد هزمتك أيضًا .

هزّ مستر (X) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لقد ربحت جولة فحسب ، ولكنها لم تهزمني بعد ، بدليل أنني أتحدث إليكم الآن ، من مقر سري آخر ، لم تتوصّل لكشفه .. حتى هذه اللحظة على الأقل .

قال الرئيس في توتر :

ـ نحن أيضًا نتحدث إليك من مقر سري ، لم تتوصّل لكشفه ، ولن يمكنها أن ..

قاطعه مستر (X) فجأة في صرامة :

ـ لا تتنبأ بالأحداث المستقبلية يا سيادة الرئيس .

زمجر وزير الدفاع ، وهو يقول في حدة :

ـ هذا المقر سري للغاية ، حتى إن ..

قاطعه مستر (X) أيضًا :

ـ وكذلك كانت شفرة الاتصال بالأقمار الصناعيـة ، ونظم الأمن في البيت الأبيض ، وشبكة الاتصالات الداخلية ، و ...

قاطعه الرئيس هذه المرة ، فى عصبية زائدة :

ـ كفى .

ثم تراجع فى مقعده ، متسائلاً فى صرامة :

ـ إنك لم تقدّم ما لديك بعد .

صمت مستر (X) بضع لحظات ، قبل أن يعتدل فى مقعده ، ويقول فى حزم :

ـ لقد تقدّمت بعرض واضح يا سيادة الرئيس .. سأقدّم لكم ما جمعته من معلومات ، عن تلك الحقيرة ، منذ هاجمت وكرى السرى ، وكل المعلومات التى سأحصل عليها ، وستحصل عليها منظمتى ، المتشعّبة فى كل أنحاء العالم ، والمنتشرة على نحو يفوق انتشار مخابراتكم المركزية نفسها ، وأنتم تعلمون أن هذا سيساعدكم كثيراً على مكافحتها ، وتفادى أضرارها ، واستعادة السيطرة على الموقف ، و ...

صمت لحظة ، قبل أن يضيف فى صرامة :

ـ وإنقاذ هيبة (أمريكا) .. زعيمة النظام العالمى الجديد .

وجم الأربعة لقوله ، وتبادلوا نظرة صامتة متوترة ، قبل أن يتابع مستر (X) ، وقد أدرك أنه قد سيطر على الموقف ، إلى حد ما :

ـ السؤال الآن هو : ما الذى ستقدمه لى زعيمة النظام العالمى الجديد بالمقابل .

انعقد حاجبا وزير الدفاع ، وهمهمت مستشارة الأمن القومى بعبارة غير مفهومة ، وسرت قشعريرة باردة فى جسد مدير المخابرات ، فى حين تململ الرئيس فى مقعده ، وهو يقول :

ـ كم تطلب بالضبط ؟!

أجابه مستر (X) ، فى سرعة ، وصرامة :

ـ الأمر لا يتعلق بالنقود يا سيادة الرئيس ، فلدى منها ما قد يفوق ما لديكم أنتم .

بدت عبارته مبالغة للغاية ، فسأله الرئيس فى حدة :

ـ ماذا تطلب إذن ؟!

التقط مستر (X) نفساً عميقاً ، وعاد يميل إلى الأمام ، وهو يقول فى حزم :

ـ سأخبركم يا سيادة الرئيس .. سأخبركم ما الذى أطلبه فى المقابل .

قالها ، ثم أعلن مطلبه ..

واتسعت العيون كلها في دهشة مستنكرة ..

فما طلبه كان غير متوقَّع ..

ومفاجئًا ..

بحق ..

* * *

بذل قائد قوات الزعيمة الغامضة جهدًا شديدًا بالفعل ، لكي يشد قامته كالمعتاد أمامها ، وهو يقول :

ـ أوامرك يا سيدتي .

قالت ، دون أن تدير عينيها عن شاشة المراقبة ، التي تطالعها في اهتمام بالغ :

ـ اقترب .. أردتك أن ترى هذا .

اقترب منها في حذر ، وهو يتساءل :

ـ وما هذا ؟!

أشارت إلى الشاشة في هدوء ، وهي تنفث دخان سيجارتها الحمراء الطويلة ، في بطء واستمتاع ، فمال برأسه ليتابع الشاشة بدوره ، قبل أن تسري في كيانه انتفاضة قوية ، وينعقد حاجباه في شدة .

فعلى شاشة المراقبة ، كان (أدهم) يترنح داخل حجرة الطوربيدات ، وهو يتحرك في سرعة ، بحثًا عن مخرج من المكان ، في حين ينتشر فيه ذلك الغاز ..

وينتشر ..

وينتشر ..

« هل نجا ؟! »

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها ، عندما ألقى قائد قواتها السؤال في توتر ، ورمقته بنظرة جانبية ساخرة ، وهي تقول :

ـ إذن فقد كنت تعلم ما يواجهه .

ارتبك بشدة ، وهو يقول :

ـ تلك الصينية (تيا) ، أخبرتني أن ..

قاطعته بإشارة صارمة من يدها ، والتقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، نفثته في اتجاه الشاشة مباشرة ، وهي تقول في صرامة :

ـ اصمت ، ودعنا نتابع .

أطبق شفتيه ، فى توتر لم يشعر بمثله ، فى حياته كلها من قبل ، وواصل مراقبة الشاشة ، التى بدا عليها (أدهم) ، وقد فقد جسده توازنه ، إلى حد كبير ، على الرغم من كتمانه أنفاسه لفترة طويلة ، والجهد الرهيب الذى بذله للمقاومة ، ثم لم يلبث أن تهاوى أرضًا ، وأنفاسه تتلاحق على نحو عجيب ، فتساءل القائد فى اهتمام متوتر :

ـ هل .. هل مات ؟!

هزت الزعيمة رأسها نفيًا فى بطء ، وقالت فى هدوء :

ـ إنه غاز منوِّم ، وليس غازًا قاتلاً .

تراجع محاولاً شد قامته ، وهو يغمغم :

ـ آه .

نطقها بمنتهى الاقتضاب والتوتر ، فالتفتت إليه بنظرة ساخرة ، وقالت فى هدوء ، وهى تسترخى فى مقعدها :

ـ سيستمر انبعاث الغاز لخمس دقائق أخرى ، حتى نضمن أن صديقنا (أدهم) لايخدعنا بغيبوبة زائفة ، أو أن مقاومته تفوق ما تصورناه ، وبعدها سيتم شفط الغاز من الحجرة ، وفتح أبوابها ، وعليكم عندئذ إعادة ضيفنا المصرى إلى زنزانته الإليكترونية ، وبعدها ..

بترت عبارتها بغتة ، فخفق قلبه فى عنف ، وتابعها ببصره فى توتر بالغ ، وهى تلتقط نفسًا عميقًا من سيجارتها ، ثم تنفثه فى بطء واستمتاع ، وتسترخى فى مقعدها أكثر وأكثر ..

وانتظر القائد أن تتابع حديثها ..

وانتظر ..

وانتظر ..

وطال صمتها ، وهى تواصل نفث سيجارتها بمنتهى البطء ، وشفتاها تحملان ابتسامة غامضة ، لم يفهم مغزاها بالضبط ، فقال فى عصبية شديدة :

ـ ماذا بعدها أيتها الزعيمة ؟!

ورأى ضحكة تتألق فى عينيها ..

ضحكة ساخرة ، شامتة ، وحشية ..

ضحكة لم تنتقل إلى شفتيها قط ، وهى تعتدل فى مقعدها ، قائلة :

ـ فلنترك ما بعد لما بعد أيها القائد

ثم عادت تسترخى فى مقعدها ، وهى تشير بيدها ، مستطردة فى حزم آمر :

ـ أما الآن ، فعليك تنفيذ أوامرى فحسب .

استجمع ما تبقى من أعصابه ، وقال فى قوة :

ـ أوامرك أيتها الزعيمة .

ثم اندفع لتنفيذ الأمر ، إلا أنها استوقفته فجأة فى صرامة :

ـ أيها القائد .

شعر بقلبه يخفق فى عنف ، وهو يلتفت إليها ، فاعتدلت مرة أخرى ، قائلة فى صرامة أقرب إلى الشراسة :

ـ بالنسبة للحارسين و (تيا) ضع كل منهما فى زنزانة منفصلة ، حتى أصدر أوامرى بشأنهم .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتساءل فى توتر :

ـ فى زنزانة أيتها الزعيمة ؟!

ألقت سيجارتها بعيداً ، وهى تجيب فى شراسة :

ـ نعم .. فى زنزانة أيها القائد .

وعادت تسترخى فى مقعدها ، وهو يغادر المكان ؛ لتنفيذ أوامرها ، ولم يكد يغلق الباب خلفه ، حتى أطلقت الزعيمة الغامضة ضحكة طويلة ..

ضحكة ظافرة ، ساخرة ، شامتة ..

ووحشية ..

* * *

« لست أصدق حرفًا واحدًا من هذا .. »

نطقت مستشارة الأمن القومى الأمريكية العبارة ، فى عصبية شديدة ، قبل أن تلتفت لمواجهة الرئيس ، مستطردة :

ـ ذلك الرجل يحاول خداعنا بوسيلة ما .

انعقد حاجبا الرئيس فى توتر ، وتراجع فى مقعده بحركة عصبية ، وألصق وزير الدفاع ظهره بالجدار ، وهو يفرك ذقنه فى حدة ، فى حين شدّ مدير المخابرات قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ لست أظن هذا .

ازداد انعقاد حاجبى الرئيس ، ومستشارته تقول فى حدة :

ـ هل تصدق ما قاله ؟!

أجابها مدير المخابرات ، فى سرعة وحزم :

ـ بالتأكيد .

احتقن وجهها بشدة ، وغصّ حلقها بعبارة ساخطة ، عجزت عن الانفلات من بين شفتيها ، فقال الرئيس فى حنق :

ـ إنه زعيم إجرامى يا مدير المخابرات .. ربما يروق له

أن يوصف بأنه زعيم لمنظمة كبيرة ، ولكن الواقع أنه مجرد مجرم ، لا يختلف كثيراً عن دونات (المافيا) ، فكيف يكون مطلبه الوحيد هو أن نتعاون معه ، عندما يحتاج إلى هذا .

قال مدير المخابرات في صرامة :

ـ إنه ليس بالمطلب البسيط .

اعتدل وزير الدفاع ، وهو يقول في حدة :

ـ كان يمكنه أن يطلب ما يفوق هذا .

استدار إليه مدير المخابرات ، قائلاً في صرامة أكثر :

ـ وما الذي يمكن أن يفوق هذا ؟!

تطلع إليه الجميع في غضب ، ولكنه تابع بنفس الصرامة :

ـ من الواضح أنكم تجهلون تماماً قيمة المعلومات ، في زمن كهذا .. دعوني أوضح لكم إذن أنها أخطر سلاح في العصر الحديث ، ولو أننا وافقنا على ما طلبه مستر (X) مقابل خدماته ، وارتبطنا معه بعقد تبادل معلومات ، أو مشاركة معلومات دائم ، يحمل توقيع الرئيس ، سيعني هذا أنه ، وبعد هذه الأزمة ، لو أنها مرت بسلام ، ستكون

ملزمين بتبادل كل ما نحصل عليه من معلومات مع منظمته ، وهذا يتضمن التقارير السرية ، من كل أنحاء العالم ، وصور الأقمار الصناعية ، وحتى البيانات البيولوجية(*) .. باختصار ، سنمنحه كل قوتنا المعلوماتية ، في نفس الوقت الذي ينبغي أن نتقي فيه شره ، حتى لا يتحول إلى شوكة في ظهرنا فيما بعد .

بدا وزير الدفاع صارماً بدوره ، وهو يقول :

ـ ولكننا سنحصل على ما لديه من معلومات أيضاً .

صاح مدير المخابرات :

ـ هذا صحيح ... وسيعاوننا أيضاً في القضاء على تلك الزعيمة الغامضة ، بكل ما يملك من معلومات ، وقوة ، وإرادة أيضاً ، فإذا ما انقشعت الغمة ، لن يمنعه أي شيء في الوجود ، من أن ينقلب علينا ، ويستغل كل ما لديه من معلومات ضدنا .

(*) التجسس البيولوجي : أحدث فرع من فروع التجسس ، بدأ مع نهايات القرن العشرين ، ويعتمد على الحصول على أية عينات حيوية ، من الخصوم ، وحتى الأصدقاء ، لتحديد البصمة الجينية لكل من يمكن مواجهته ، في أي وقت من الأوقات ، وحتى يمكن تعرف جثة الخصم ، أو أشلائه ، أو حتى سماته النفسية وتاريخه المرضي ، الحالي والمستقبلي أيضاً .

هتفت مستشارة الأمن القومي :

ـ مستحيل !

سألها مدير المخابرات في صرامة :

ـ ولماذا مستحيل !

أجابته في حدة :

ـ لأنه سيظل بحاجة إلينا دومًا ؛ ليتفوق على الآخرين .. تمامًا مثل إسرا ...

بترت عبارتها دفعة واحـدة ، فانعقد حاجبا الرئيس في توتر ، وتراجع وزير الدفاع في عصبية ، في حين قال مدير المخابرات بنفس الصرامة :

ـ مثل (إسرائيل) .. أليس كذلك ؟!

احتقن وجهها بضع لحظات ، حدقت خلالها فيه في مقت ، قبل أن تهتف في شراسة :

ـ بلى .. مثل (إسرائيل) .. وماذا في هذا ؟! ألسنا نتعاون معها ، ونمنحها كل ما لدينا من معلومات ، منذ نصف قرن من الزمان أو يزيد .. هل انقلبت علينا يومًا ؟!

صاح بها مدير المخابرات :

ـ هل انقلبت علينا ؟! أجـرى نفسـك على زيارة واحـدة لمكتبي ، وسأضـع أمامـك الملف الخاص بعمليات التجسُّس الإسرائيلية علينا ، ولكنني أنصحك بالحصول على إجازة طويلة ؛ لأن الملف أضخم مما يمكنك تصوّره .

احتقن وجه المستشارة أكثر ، وهي تقول :

ـ الإسرائيليون ليسوا أعداءنا .. العرب هم ..

« كفى .. »

قاطعهم الرئيس بتلك الصيحة الصارمـة ، وهو يضـرب سطح مكتبه براحته ، فالتفت الكل إليه في توتر ، ليتابع فـي صرامة عصبية :

ـ لن نضيع الوقت في جدل عقيم ، وتلك الفضة تتربّص بنا .

انتفض وزير الدفاع ، وهو يقول في حزم :

ـ القرار لك يا سيادة الرئيس .

حفر التوتر سماته في وضوح عجيب ، على وجـه الرئيس الأمريكي ، وهو ينقـل بصـره بين وجوههم ، في عصبية

غير محدودة، قبل أن يعاود الجلوس خلف مكتبه الاحتياطي، ويقول:

- سنوقّع ذلك العقد، مع مستر (X).

ولم ينبس أحدهم بحرف واحد.

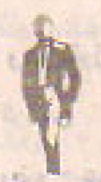
فقرار الرئيس الأمريكي كان خطيرًا للغاية ..

وإلى أقصى حد ..

فالتوقيع على ذلك العقد السري، كان كفيلاً بتغيير وجه العالم كله ..

إلى الأسوأ.





٤- القرار ..

في بطء شديد، راح ذهن (أدهم) يستعيد صفاءه رويدًا رويدًا ..

ولأنها ليست أول مرة، يخوض فيها مثل هذه المواقف، فقد كان يكفيه قدر قليل من الوعي، ليستوعب موقفه الجديد ..

ودون أن يفتح عينيه ..

لقد عاد إلى زنزانته الإليكترونية بالتأكيد ..

تلك الزنزانة، التي تتم مراقبته داخلها، بأحدث وأدق نظم الأمن الرقمية الفائقة ..

وفي مكان ما، داخل تلك الغواصة العجيبة، التي اتخذتها الزعيمة الغامضة وكرًا لها، في أعماق المحيط الأطلنطي، كان هناك من يراقب حركاته، وسكناته، ويحصي نبضاته وأنفاسه، ويراقب حتى اهتزاز جفونه ..

لذا ينبغي أن يظل صامتًا ساكنًا، كما لو أنه لم يسترد وعيه بعد ..

على الأقل، حتى يضع خطة العمل، في المرحلة التالية ..

إنه بالتأكيد أصعب موقف واجهه، في حياته كلها؛ فالزنزانة التي وضعوه بها، تكاد تكون منيعة، إلى حد مدهش، ووسائل الأمن والتأمين، داخل تلك الغوّاصة، توحي كلها بأن الإفلات مستحيل !

مستحيل تمامًا !!

ولكنه لم يتوقف يومًا أمام تلك الكلمة ..

كلمة (مستحيل) ..

إنه محترف بالقدر الكافي، ليدرك أنه ما من نظام أمني محكم مائة في المائة، مهما بلغت عبقرية واضعه ..

هناك حتمًا ثغرة ما، في مكان ما، عليه أن يبحث عنها، ويكشف أمرها، وعندئذ سيمكنه أن يضع خطته ..

وبكل خبرته وإرادته وحزمه، راح يعتصر خلايا مخه الرمادية، بحثًا عن تلك الثغرة ..

راح يعتصرها ..

ويعتصرها ..

ويعتصرها .

و ...

« لقد استعاد وعيه .. »

نطقت الزعيمة العبارة في تلذذ شرس، وهي تنفث دخان سيجارتها الحمراء الطويلة، في بطء واستمتاع، وتتطلع مسترخية إلى شاشات الرصد، المتصلة بزنزانة (أدهم)، فتنحنح قائد قواتها في عصبية، وهو يتساءل :

ـ وكيف علمت أيتها الزعيمة ؟! صورته المقرّبة على الشاشة تؤكد أنه ما زال غارقًا في غيبوبته العميقة، بعد كل ما استنشقه من الغاز المنوّم .

التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها، قبل أن تقول بابتسامة غامضة :

ـ إنه محترف .

أدار قائد قواتها عينيه إليها في تساؤل، فتابعت بنفس الابتسامة، التي بعثت في جسده قشعريرة مخيفة :

ـ وخبرته مع ذكائه، يكفيان لخداع أمثالك، من محدودي العقل والتفكير .

بدا عليه الغضب، فألقت سيجارتها بعيدًا، وهي تضيف :

ـ وحتى العباقرة والمحترفين من أمثالي .

زمجر قائد قواتها ، قائلاً فى سخط :

ـ أنا أيضًا محترف .

رمقته بنظرة ساخرة سريعة ، قبل أن تتجاهل عبارته تمامًا ، وتشير إلى شاشات الرصد الإليكترونية ، مستطردة :

ـ ولكنه لن يخدع هذه الآليات المتطوّرة أبدًا .

ثم لوّحت بيدها ، بحركة مسرحية أنيقة ، مضيفة :

ـ وكلها تؤكّد أنه قد استعاد وعيه ، منذ ست دقائق على الأقل .

حدّق قائد قواتها فى شاشات الرصد بضع لحظات ، ولكنه لم يستطع أبدًا استيعاب تلك الأرقام والمنحنيات العديدة ، فركز بصره على الشاشة ، التى تنقل صورة مقربة لوجه (أدهم) بضع لحظات ، قبل أن يهز رأسه فى قوة ، قائلاً فى إصرار :

ـ مستحيل أيتها الزعيمة ! لو أنه استعاد وعيه بالفعل ، منذ ست دقائق كاملة ، فلماذا يظل ساكنًا ومغمض العينين على هذا النحو .

أشعلت سيجارة حمراء طويلة أخرى ، بقداحتها الماسية الأنيقة ، ونفثت دخانها فى قوة ، قائلة فى هدوء :

ـ إنه يعيد دراسة الموقف ، ويبحث عن ثغرة ما ، فى نظامنا الأمنى .

بدا قائد قواتها أشبه بالأبله ، وهو يحدق فيها ذاهلاً مستنكرًا ، قبل أن يهزّ رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ مستحيل ! مستحيل وألف مستحيل ! الشخص الذى يفقد وعيه لفترة طويلة ، لا يمكنه أن يستعيد صفاء ذهنه بهذه السرعة ، و ...

قاطعته بصرامة مفاجئة :

ـ الشخص العادى .

ثم أشارت بأصابعها الممسكة بسيجارتها نحو شاشة المراقبة ، وهى تتابع فى لهجة عجيبة ، حملت لمحة من الإعجاب والاحترام ، إلى جوار صرامتها الشرسة :

ـ وليس هذا الرجل .

انعقد حاجبا قائد قواتها فى حنق ، وهو ينقل بصره بينها ، وبين صورة وجه (أدهم) على الشاشة ، قبل أن يقول فى بطء غاضب ، يكتم ثورة رهيبة ، تحتدم فى أعماقه :

ـ هذا الرجل مجرّد رجل عادى أيتها الزعيمة ، ولقد كدنا نطلقه كطوربيد بشرى ، فى قلب الأعماق ، لولا أن ..

قاطعته ، وهى تعتدل بحركة حادة شرسة :

ـ كذبنا .

ارتبك بشدة ، مع قولها هذا ، وبذل جهدًا خارقًا ليتماسك ، وهو يقول :

ـ أعنى كادت (تيا) أن تفعل .

قالت فى بطء :

ـ (تيا) ؟!

ثم تراجعت فى مقعدها فجأة ، وهى تطلق ضحكة عالية عابثة مجلجلة ، انتفضت لها كل خلية فى جسده ، وامتقع معها وجهه بشدة ، وتوقّع منها أن تواجهه بحقيقة ما حدث ، حتى إن أصابعه قد تحسّست مقبض مسدسه بحركة آلية غريزية ، إلا أنها اعتدلت فجأة ، مع أزيز حاد انطلق من أحد أجهزتها ، واستدارت بمقعدها الأنيق نحو ذلك الجهاز ، لتلقى نظرة على ما ارتسم على شاشته ، قبل أن تهز كتفها ، قائلة فى سخرية وحشية :

ـ رائع .. اللعبة تزداد إمتاعًا فى كل لحظة .

تنحنح قائد قواتها مرة أخرى ، وهو يقول فى توتر :

ـ أيتها الزعيمة .. أريد أن أخبرك أن ..

قاطعته بإشارة صارمة من يدها ، وهى تقول فى شراسة مخيفة :

ـ اصمت .

ثم أدارت إليه عينين ملتهبتين ، تحملان كل صرامة ووحشية الدنيا ، وهى تضيف بمنتهى العنف :

ـ غادر المكان فورًا .

كانت كل ذرة فى كيانه تشعر بتوتر غير محدود ، إلا أنه شد قامته ، فى حركة عسكرية قوية ، ورفع يده بالتحية العسكرية ، هاتفًا :

ـ أوامرك أيتها الزعيمة .

قالها ، واندفع مغادرًا ، تاركًا الزعيمة وحدها فى مقرّها ، تنفث دخان سيجارتها الحمراء الطويلة فى شراهة شديدة ، وهى تراجع البيانات الرقمية ، التى وصلت إلى جهاز الاتصالات الخاص بها ، قبل أن تتراجع فى مقعدها ، وترسم على شفتيها ابتسامة ساخرة متلذّذة ، وهى تقول :

ـ إذن فقد فعلوها .. عظيم .. هذا سيعلمهم عدم العبث معى مرة أخرى بالتأكيد .

قالتها ، ثم أطلقت ضحكة طويلة ..

ضحكة عابثة ..

شريرة ..

ووحشية ..

* * *

« كل أقمارنا الصناعية عجزت عن تحديد موقع تلك الغواصة !! »

نطقت مستشارة الأمن القومى الأمريكية العبارة فى غضب ، وهى تطالع آخر التقارير ، الواردة من كل نظم الأمن المختلفة ، ثم لوّحت بذراعها فى حيرة ، مستطردة :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

قال وزير الدفاع فى غلظة :

ـ ربما يعنى أنه لا وجود لها ، إلا فى مخيلة المصريين فحسب .

اندفع مدير المخابرات ، يقول فى حزم :

ـ أو أنها تستخدم وسيلة متطوّرة ؛ للشوشرة على الأقمار الصناعية .

تساءل الرئيس فى عصبية :

ـ أيهما الأرجح ؟!

تبادل الثلاثة نظرة متوترة ، قبل أن تقول مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

ـ الاحتمالان متساويان للأسف .

بدا الرئيس أكثر عصبية ، وهو يقول :

ـ وكيف نرجح أحدهما على الآخر ؟!

عادوا يتبادلون النظرة ذاتها ، قبل أن يشد وزير الدفاع قامته ، قائلاً :

ـ ربما يحتاج الأمر إلى تدخُل الأسطول ، لتمشيط مياهنا الإقليمية كلها .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يتطلع إليه فى توتر ، ثم لم يلبث أن التفت إلى مدير المخابرات ، متسائلاً :

ـ أيمكن أن يفيد هذا ؟!

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

ـ ربما .

ضرب الرئيس سطح المكتب الصغير ، فى مقر القيادة السرى ، وهو يهتف فى غضب مستنكر :

ـ ربمـا ؟! أهذا مـا يمكننـى أن أحصل عليه ، من أهم وأخطر ثلاثة أشخاص فى الإدارة كلها ؟! ربما ؟!

أشـاح مدير المخابرات بوجهه فى توتر ، فقال وزير الدفاع فى محاولة لتهدئة الرئيس :

ـ الاحتمال كبير ، فى هذه الحالة يا سيادة الرئيس .

لوّح الرئيس الأمريكى بذراعيـه كليهما فى حـدة ، وهو يهتف :

ـ ماذا تنتظرون إذن .. أطلقوا الأسطول فى المحيط .

قال وزير الدفاع فى سرعة :

ـ سأعمل على تنفيذ هذا فوراً .

واندفع نحو أجهزة الاتصال ، لتنفيذ أوامر الرئيـس ، فى حين تساءل مدير المخابرات فى قلق :

ـ تُرى هل تم إعداد عقد الاتفاق ، مع مستر (X) ؟! المفترض أن يتم الاتصال ، بيننا وبينه ، خلال ربـع السـاعة فحسب ..

مطّ الرئيس شفتيه ، والتفت إلى مستشارة الأمن القومـى بنظرة متسائلة ، مفعمة بالتوتر والانفعال ، فتنحنحت فـى قوة ، قائلة :

ـ مستشارنا القانونى الخاص يراجع بنود الاتفاق ، وسيصبح جاهزًا للتوقيع ، فى الوقت المحدد .

أطلق مدير المخابرات زفرة ملتهبـة ، مـن أعمق أعماق صدره ، قبل أن يقول :

ـ أتعشم أن تكون خطوتنا هذه صحيحة .

زمجر الرئيس ، قائلاً :

ـ ليس أمامنا حل آخر .

تمتم مدير المخابرات :

ـ للأسف !

همّت مستشارة الأمـن القومـى بمهاجمتـه بعبارة مـا ، إلا أن وزير الدفاع اعترض عبارتها دون أن يدرى ، وهو يعتدل قائلاً :

ـ كل شىء على ما يرام يا سيادة الرئيس .. معظم قطـع الأسطول اتخذت مواقعها بالفعل ، وبـاقى القطـع فى طريقها إلى المواقع ، التى تم تحديدها لها ، وفقًا للخطة الاحتياطية (ب) .

تمتم الرئيس فى توتر :

ـ بهذه السرعة ؟!

أجابه وزير الدفاع ، فى لهجة حملت نبرة زهو :

ـ قطع الأسطول كانت منتشرة فى المحيط بالفعل يا سيادة الرئيس ، منذ كنا نبحث عن مقاتلتنا ، التى أتى بها ذلك المصرى ، واختفت دون أن تترك خلفها أدنى أثر ، ولقد أمرت ببقائها فى موقعها ، عندما اختارت تلك الزعيمة ساحل (نورفك) موقعًا للقاء بديلك ، ولهذا كانت مستعدة الآن .

مطت مستشارة الأمن القومى شفتيها ، قائلة :

ـ وهل ينبغى أن نصفق لهذا ؟!

رمقها الرئيس بنظرة صارمة غاضبة ، فاحتقن وجهها فى توتر ، فى حين قال مدير المخابرات فى اهتمام :

ـ هل تشارك غواصاتنا أيضًا ؟!

أشار وزير الدفاع بسبابته ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. ويمكننا متابعة كل التحركات من هنا .

ضغط زرًا فى الجدار ، فأضيئت شاشة كبيرة ، فى منتصف الحجرة ، وظهرت عليها عدة نقاط مضيئة حمراء ، وأخرى خضراء ، وأشار إليها الوزير ، متابعًا فى حزم :

ـ هذه خريطة للمحيط الأطلنطى ، والحدود المرسومة هنا ، هى مياهنا الإقليمية ، والنقاط الحمراء تمثل مواقع المدمرات ، وحاملات الطائرات ، أما الخضراء ، فتحدد مواقع غواصاتنا .

تابع الكل تحرك النقاط المضيئة على الشاشة الكبيرة ، وتساءل الرئيس فى اهتمام :

ـ ترى كم سيستغرق هذا ؟!

هز وزير الدفاع رأسه ، قائلاً :

ـ لا أحد يمكنه الجزم ، يا سيادة الرئيس .

ران عليهم الصمت لحظات ، ثم قال الرئيس فى حدة :

ـ ألم يكن من الأجدى أن يمنحنا مستر (X) المتحذلق هذا ، معلومة كهذه ؟!

غمغمت مستشارة الأمن القومى ، وهى ترمق مدير المخابرات بنظرة جانبية ، تحمل كل مقت الدنيا :

ـ ربما يجهلها أيضًا .

أسرع مدير المخابرات يقول :

ـ أو أنه لن يمنحنا إياها ، إلا بعد توقيع الاتفاق رسميًا .

ـ وصاح الرئيس فى غضب .

ـ أليست لديكم أية أجوبة حاسمة ، لأى سؤال ألقيه عليكم ؟!

بدا التوتر على وجهى وزير الدفاع ، ومستشارة الأمن القومى ، فى حين قال مدير المخابرات فى حزم :

ـ الموقف كله لا يسمح لنا بالحسم يا سيادة الرئيس ، ولكنها مسألة وقت فحسب ، فما هى إلا دقائق ، ونلتقى بمستر (X) و ...

قاطعته فجأة شهقة قوية ، انطلقت من حلق وزير الدفاع ، فالتفت الكل إليه فى سرعة ، ورأوه يحدق فى تلك الشاشة الزجاجية المضيئة ، التى تحمل خريطة المحيط ، وتوزيع وحركة قطع الأسطول ، قبل أن يشير إليها ، فى انزعاج مابعده انزعاج :

ـ رباه ! لقد اختفت إحدى حاملات طائراتنا فجأة .

انتفض جسد الرئيس فى عنف ، وهو يهتف :

ـ اختفت ؟!

مع نهاية هتافه ، اختفت نقطة حمراء أخرى فى الخريطة ، ثم تبعتها ثالثة ، على نحو جعل مستشارة الأمن القومى ترتجف ، وهى تهتف :

ـ مستحيل !

ـ مستحيل !

أما مدير المخابرات ، فقال فى عصبية شديدة :

ـ .. لمن الممكن أن ..

قبل أن يتم عبارته ، انطلق رنين الهاتف السرى الخاص ، فى مقر القيادة الاحتياطى ، فانعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، وهو يلتقطه ، مغمغماً فى عصبية شديدة :

ـ أرجو ألا ...

قبل أن يتم عبارته ، تجمد لسانه فى حلقه بغتة ، وامتقع وجهه بشدة ، وزاغت عيناه فى محجريهما ، وهو يستمع إلى محدثه ، عبر الهاتف السرى ، فهتفت مستشارة الأمن القومى ، فى صوت خافت ملتاع :

ـ أهى ..

قاطعها الرئيس ، وهو يقول فى مرارة :

ـ إنها هى .

ثم أنهى المحادثة ، دون أن يجيب محدثه ، وهو يضيف ، فى لهجة أقرب إلى الانهيار :

ـ لقد سحقت حاملة طائرات ، ومدمرتين بمدفع الليزر الفضائى ، الذى تسيطر عليه .. سحقتهم تماماً .

وهوت قلوب الجميع بين أقدامهم ..

بمنتهى العنف ..

★ ★ ★

« فى قاموس رجل المخابرات الناجح ، لا وجود لكلمة (مستحيل) !! »

ترددت العبارة فى ذهن (أدهم) ، وهو يسترجع كل ما لقنه إياه والده الراحل ، فى سنوات حداثته الأولى ، وما اعتنقه مبدأ لحياته كلها ، منذ وعى الدنيا ..

لا وجود لكلمة مستحيل !

كل شىء له مخرج حتمًا ..

وكل نظام أمنى يحوى ثغرة ما ..

على الأقل ثغرة واحدة ..

المهم هو أن نعلم أين هى ؟!

أين ؟!

أين ؟!

لُجبر جسده على الاستقرار ، على الرغم من صعوبة الموقف المحيط به ، وراح يسترجع كل ما حدث ، منذ بداية الأحداث ..

كل موقف ..

كل حديث ..

كل جملة ..

بل كل كلمة ..

وكل حرف ..

كان عليه أن يدرس الموقف كله ، بأدق التفاصيل ، وبمنتهى الهدوء ، حتى يعثر على تلك الثغرة ، التى لم تعد تعنى نجاته من هذا السجن العصيب فحسب ، وإنما قد تعنى إنقاذ العالم كله ، من سادية مجنونة ، تسعى للسيطرة عليه بلا رحمة أو هوادة ..

من الواضح أنها تستخدم تكنولوجيا شديدة التطور ، مع قاعدة معلومات رهيبة ، تصل إلى أكثر البقاع أمنًا وحراسة ..

ثم إنها تملك تمويلاً ماليًا هائلاً ، يتيح لها الحصول على كل ما يلزم ، للتفوق على تكنولوجيا دولة عظمى ، مثل الولايات المتحدة الأمريكية ..

استعاد ذهنه لحظات سقوطه في المحيط، وظهور تلك الغواصة الهائلة، وفقدانه الوعي، و ...

توقف ذهنه فجأة، عند مشهد بعينه، وتركزت حوله أفكاره بشدة، وانطلق عقله يعمل كالصاروخ؛ لتحليله وتمحيصه، واستيعاب أدق تفاصيله .. وفي أعمق أعماقه، ارتسمت ابتسامة، لم تطفُ على ملامحه قط، وإن لم يعد يبالي كثيرًا بالتظاهر بأنه لم يستعد وعيه بعد ..

بل على العكس تمامًا، بدأ يحرك يديه وقدميه، دون أن يفتح عينيه، ليعلن لمن يراقبه، أنه يستعيد وعيه بالفعل .. ومع تحركاته، التي بدت عشوائية تمامًا، كانت يداه وقدماه تفحصان كل ما يلاصق جسده، بمنتهى الخفة والسرعة والمهارة ..

كان يرقد على فراش مطاطي لدن، من ذلك الطراز المستخدم في المستشفيات، والعيادات الطبية، وإلى جواره جدار من المعدن، تثبتت فيه مجسات إليكترونية مختلفة، لقياس ورصد حركته، وتنفسه، وحتى نبضه ..

وفي الجدار المقابل، كانت هناك آلات التصوير والمراقبة ..

وبمنتهى التركيز، راحت يده تعمل .. وتعمل ..

وتعمل ..

« لا داعي للتظاهر يا سيد (أدهم) .. أعلم أنك قد استعدت وعيك، منذ فترة طويلة .. »

تردد صوت الزعيمة، داخل الزنزانة الإليكترونية الصغيرة، ففتح (أدهم) عينيه، وابتسم في سخرية، وهو يعتدل في نشاط، ليجلس على طرف فراشه، قائلًا :

ـ آه .. هو أنت مرة أخرى .

أطلقت الزعيمة ضحكة عابثة، رددتها الأجهزة الصوتية داخل الزنزانة، قبل أن تقول :

ـ نعم .. هو أنا يا عزيزي (أدهم) .. أنا التي تعرفك، أكثر مما تعرفك أية أنثى في الدنيا .

فجرت عبارتها قلقًا قديمًا في أعماقه، إلا أن الوقت لم يكن يسمح بالتفكير في أمور قديمة، لذا فقد طرح مشاعره كلها خلف ظهره، وحافظ على ابتسامته الساخرة؛ ويده تواصل عملها في سرعة، أسفل غطاء الفراش، ولسانه يقول :

ـ عجبًا ! كنت أتصور أن المعرفة تحتاج إلى لقاء واحد على الأقل .

قالت في سرعة :

ـ لقد التقينا كثيرًا بالفعل .

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى حذر :

ـ أيعنى هذا أنك تستخدمين أحد وسـائل تغيير الأصوات الإليكترونية مثلاً ؟!

أطلقت ضحكتها العابثة مرة أخرى ، وقالت :

ـ أنت رجل مخابرات يـا عزيزى (أدهم) ، ومثلك يعلم جيدًا أن المعلومات تجعلـك تعـرف أى شـخص ، وتلتقى بأفكاره طويلاً ، دون أن يواجه أحدكما الآخر مرة واحدة .

سألها بنفس الحذر :

ـ أهذا ما كنت تقصدينه ؟!

أطلقت ضحكة عابثة قصيرة ، وقالت فى خبث :

ـ ربما .

استعاد ابتسامته الساخرة ، وهو يرفع يده اليمنى ، ويلوّح بها أمامها قائلاً :

ـ آه .. أنـت تميليـن إلـى الغمـوض إذن .. عظيـم .. هذا يناسب أسلوب أفلام السينما ، الذى تستخدمينه منـذ البداية .

قالت فى برود :

ـ أهذا ما تظنه ؟!

هتف فى حماس مصطنع :

ـ بالتأكيد .

ثم أشار إلى السوار الإليكترونى الكهربى ، المحيط بمعصمـه ، وهو يقول فى سخرية :

ـ حتى أسلوب سوار الحركة هذا ، استعرته من أحد الأفلام السينمائية الرديئة .

أجابته بنفس الهدوء :

ـ ربما ولكن الأمر يستحق .. أليس كذلك ؟!

دفع سبابته بحركة سريعة ، بين معصمه والسوار ، وهو يقول بنفس السخرية :

ـ من يدرى .. ربما تثبت التجربة العكس ، عندما أنتزع هذا السوار فى قوة ، وألقيه فى وجه آلات المراقبة هنا .

قالت فى صرامة هذه المرة :

ـ أنت تعلم أن هذا مستحيل .

قال في تحد :

- هذا ما تقولينه أنت .

مضت لحظة مـن الصمت ، عندما أدركت الزعيمـة أنـه يحاول استفزازها ، قبل أن تستعيد تماسكها ، وتقول في هدوء ، حمل نبرة صارمة ، لم تستطع السيطرة عليها :

- ما تفعله غير مجد يا عزيزي (أدهم) ؛ فكلانا يعلم أنك لن تجازف بنزع هذا السوار الأمني ، خاصـة وأنـك ، كرجل مخابرات ، تدرك طبيعته جيدًا .

هزّ كتفيه بلا مبالاة ، وهو يجيب :

- حتى رجل المخابرات ، يحتاج في بعض الأحيـان إلى تجربة حية .

ثم جذب السوار فجأة ، هاتفًا :

- كهذه .

صاحت في آلية :

- لا .. لا تفعلها .

ومع صـيحتها ، انتفض جسـد (أدهم) بمنتهى العنف ، كما لو أنه قد تلقى صاعقة عنيفـة ، وجحظت عينـاه عن آخرهما ، وتصلّب جسده كله ، مع شـهقة عجيبـة ، انطلقت من حلقه ، قبل أن يسقط أرضًا ، وقد همدت حركته .. تمامًا .

* * *



٥ - رمز القوة ..

لم يكد وجه مستر (X) الغارق في الظلمة ، يظهر على شاشة جهاز الاتصال الخاص ، في مقر القيادة السرى ، للإدارة الأمريكية ، حتى صاح به الرئيس في عصبية :

- تلك الحقيرة نسفت ثلاث قطع ، من أسطولنا البحرى ، خلال الدقائق الماضية .

أجابه مستر (X) في هدوء لم يتوقَّعه أحدهم :

- أعلم هذا .

هتفت مستشارة الأمن القومى ، في غضب مستنكر :

- تعلم ؟!

وصاح الرئيس الأمريكى في حدة :

- عظيم .. من الواضح أن الكل أصبح يعلم الكثير ، عن أدق أسرارنا ، في حين نجهل كل شىء عن أسرار الآخرين .

قال مدير المخابرات في عصبية :

- ليس إلى هذا الحد يا سيادة الرئيس .

فاستدارت إليه مستشارة الأمن القومى ، هاتفة في حنق :

- حقًّا ؟!

احتقن وجه مدير المخابرات ، وهم بالاشتباك معها كلاميًا ، لولا أن أوقفهما وزير الدفاع ، بإشارة حازمة من يده ، وهو يسأل مستر (X) :

- وكيف علمت ذلك ؟!

أجابه مستر (X) في هدوء عجيب :

- إننا منظمة قوية يا سيادة الوزير ، ومن الطبيعى أن تكون لنا عيون وآذان ، في قلب صفوفكم .

سأله الرئيس :

- وهى أيضًا لها عيونها وآذانها .. أليس كذلك ؟!

هزّ مستر (X) كتفيه ، وقال :

- أمر طبيعى .

هزّ وزير الدفاع رأسه في قوة ، وهو يقول :

- ولكن الأسطول كان في موقعه بالفعل .. معظم قطعه على الأقل ، وهى لم تهاجمه بمدفع الليزر الفضائى ، إلا عندما تلقى أمرًا بالبحث عن غواصتها ، وهذا يعنى ..

قاطعه مستر (X) في حزم :

ـ أن عيونها وآذانها قد بلغت القيادة العليا .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا الرئيس الأمريكي في شدة ، وتراجع في مقعده بحركة حادة ، في حين قال مدير المخابرات ، في صرامة متوترة :

ـ ولكن هذا أشبه بالمستحيل ، فالقيادات العليا يتم اختيارها بدقة شديدة ، وبعد تحريات أمنية مكثفة .

حمل صوت مستر (X) ، المعدّل أليكترونيًا ، لمحة سخرية ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟! وماذا عن (روبرت هانسن)(*) ؟!

(*) روبرت هانسن : جاسوس تم كشفه ، في عام ألفين ، في أعلى وأرقى مناصب مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي ، بعد أن ظل يعمل لحساب السوفيت لأكثر من اثنين وعشرين عامًا ، تولى خلالها مسئولية أرشفة كل المعلومات الخاصة بالنشاط السوفيتي ، وأصبح مسئول الاتصال ، بين مكتب التحقيقات الفيدرالي ، والمخابرات المركزية الأمريكية ، مما منحه الصلاحية الكاملة ، لفحص كل ملفات الكمبيوتر ، وكشف كل أسرار الدولة ، التي باعها جميعها للسوفيت ، ثم لجهاز المخابرات الروسي فيما بعد ، وعلى الرغم من ارتكابه بعض الأخطاء القاتلة ، لم يتم كشف أمره إلا بعد اثنى عشر عامًا من البحث والتحقيقات .

انعقد حاجبا مدير المخابرات في شدة ، وهو يقول في عصبية :

ـ (هانسن) حالة خاصة جدًا ، يصعب تكرارها .

مال مستر (X) إلى الأمام ، قائلاً :

ـ من الواضح أنها قد تكرّرت يا مدير المخابرات .. ليس مرة واحدة ، بل عدة مرات ، وأمامي هنا ملف أنيق ، يمكنكم اعتباره هدية توقيع عقد الاتفاق المعلوماتي بيننا ، وهو يحوي قائمة بأسماء عدد من رجالكم ، في القيادات العليا ، في الأمن القومي ، ووزارة الدفاع ، والمخابرات المركزية ، ومكتب التحقيقات الفيدرالي ، الذين يعملون كعيون وآذان ضدكم ، ويحوي أيضًا أرقام حساباتهم السرية ، في بنوك (سويسرا) ، التي يودعون فيها مقابل نقل المعلومات إلى الآخرين .

اتسعت عينا وزير الدفاع في ارتياع ، وانعقد حاجبا مستشارة الأمن القومي في شدة ، وتراجع مدير المخابرات كالمصعوق ، في حين تمتم الرئيس ذاهلاً :

ـ إلى هذا الحد .

هزّ مستر (X) كتفيه ، واسترخى مرة أخرى فى مقعده ، وهو يقول :

ـ كان ينبغى أن تتوقعوا هذا .

تبادل الجميع نظرة عصبية ، قبل أن يتمالك مدير المخابرات نفسه ، ويقول فى حزم ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره :

ـ بالتأكيد .

أخفت الظلمة المحيطة بوجه مستر (X) تلك الابتسامة الظافرة ، التى تألقت على شفتيه ، وهو يقول :

ـ والآن .. هل نوقّع عقد الاتفاق ؟!

أجابه الرئيس الأمريكى ، بصوت جاف مختنق :

ـ لقد وقّعنا العقد بالفعل ، وسيتم إرساله إليك فوراً ، وفقاً لما طلبته ، وعليك أن تعيد إلينا نسختنا الموقّعة منك ، مع ذلك الملف ، الذى تتحدث عنه .

حمل صوت مستر (X) ارتياحه الشديد ، وهو يقول :

ـ عظيم .. فور وصول العقد ، سيبدأ بيننا عهد من الـ ...

بتر عبارته بغتة ، مع أزيز خافت ، انطلق من ناحيته ، ونقله جهاز الاتصال الخاص إلى أسماعهم ، فتساءلت مستشارة الأمن القومى فى توتر :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابها مستر (X) ، فى شراسة شديدة :

ـ إنه إنذار من نظم الاتصال الخاصة هنا .

وتضاعفت شراسته ، وهو يضيف فى غضب :

ـ إنذار بأنكم تسعون لتعقُّب الاتصال ، وتحديد موقعى السرى .

تراجع الرئيس فى حدة ، وهتف مدير المخابرات :

ـ مستحيل !! لقد احترمنا اتفاقنا الأول ، ولم نحاول تتبُّع اتصالك ، بأى حال من الأحوال .

صاح مستر (X) فى ثورة :

ـ ولكن هناك من يتعقَّب الاتصال ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وتراجع بحركة حادة فى مقعده ، هاتفاً فى صوت خافت ، حمل رنة ارتياع :

ـ يا إلهى ! إنها ..

وقبل أن يتم هتافه ، وثب ينهى الاتصال بضغطة زر ، فانطفأت الشاشة على الفور ، وهتفت مستشارة الأمن القومى :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

قال وزير الدفاع بصوت مرتجف :

- ألم تستوعبى الأمر بعد ؟!

وأضاف مدير المخابرات ، فى توتر شديد :

- إنها هى !

واتسعت عينا الرئيس الأمريكى ، وانتفض جسده كله ..

بقوة ..

* * *

التقى حاجبا الزعيمة الغامضة فى شدة ، وهى تحدق فى شاشة الرصد ، التى بدا عليها جسد (أدهم) ، الملقى على أرضية زنزانته ، وقد سكنت حركته تماماً ، وبدا أقرب إلى الموت ، منه إلى الحياة ..

وبنظرة سريعة ، فحصت كل شاشات الرصد الحيوية ..

كلها كانت تعلن أنه ما زال على قيد الحياة ..

ولكن قلبه كان ينبض فى بطء ..

بطء شديد ..

بطء قد يعنى أنه يلفظ بالفعل أنفاسه الأخيرة ..

ولكن ماذا لو أنه يخدعها ؟!

جال الاحتمال بخاطرها ، وهى تحدق فيه ، وذهنها يعيد دراسة الأمر كله ، فى محاولة لاتخاذ قرار حاسم ..

وسريع ..

لقد رأته بعينيها يجذب ذلك السوار بسبابته ، وهى تعلم أن هذا كفيل بإطلاق شحنة كهربية عنيفة ، فى جسده كله ..

ولو أن جذبته كانت أكثر قوة ، لانفجر السوار الأمنى الإليكترونى ، ونسفه نسفاً ..

وهى لا تريده أن يموت ..

ليس فى هذه المرحلة على الأقل ..

فرأيها حوله لم يتغير ..

المتعة ليست فى قتله ..

بل فى هزيمته ..

ولقد خططت منذ البداية ليكون هنا ، عندما تحقق انتصارها ..

فى قبضتها ..

كانت تريده أن يرى لحظة الفوز الكبرى ..

لحظة سيطرتها على العالم ..

العالم كله ..

لذا لا ينبغى أن يموت ..

ليس الآن ..

وبحركة حاسمة ، اعتدلت تضغط زر الاتصال الداخلى ؛ لتهتف بقائد قواتها :

ـ طوارئ فى زنزانة رجل المخابرات المصرى .. اذهب مع طاقم إسعاف فورًا .. ابذلوا قصارى جهدكم ، حتى يظل حيًا .. هل تفهم ؟! أريده حيًا !

أتاها صوت قائد قواتها ، وهو يقول فى حماس مصطنع :

ـ أوامرك أيتها الزعيمة .

رفعت عينيها مرة أخرى إلى شاشة الرصد ؛ لتراقب (أدهم) الملقى أرضًا ، قبل أن تكرّر عبر جهاز الاتصال الداخلى :

ـ حيًا يا رجل !

كرّر قائد القوات بدوره :

ـ أوامرك أيتها الزعيمة .

تراجعت فى مقعدها وحاولت عبثًا أن تسترخى ، وهى تلتقط واحدة من سجائرها الحمراء ، وعيناها معلقتان بشاشة الرصد ..

وعلى مسافة متر واحد منها ، صدر صوت إليكترونى من جهاز اتصال لامحدود ، قبل أن يبدأ فى طباعة ورقة ، ألقت هى نظرة سريعة عليها ، ثم التقطتها مغمغمة :

ـ عظيم .

لم توح لهجتها باهتمامها الكبير بالأمر ، على الرغم من أهميته وخطورته ، وكأن كل ما يشغل ذهنها ، فى تلك اللحظات ، هو مصير (أدهم) ..

فقط ..

وعلى الشاشة ، رأت قائد قواتها ، مع اثنين من رجاله ، وآخرين من طاقم الإسعافات الطبى ، يقتحمون زنزانة (أدهم) الصغيرة ، والتى نقلت إليها أجهزة التنصّت فيها صوت قائد القوات ، وهو يقول فى حزم :

ـ أسرعوا بإسعافه .. الزعيمة تريده حيًا .

لم يرق لها قوله هذا ، داخل زنزانة (أدهم) ، ونفثت دخان سيجارتها فى شئ من التوتر ، وهى تراقب حركة الرجال الخمسة ، داخل الزنزانة الصغيرة ، التى اضطر حجمها المحدود رجال الأمن إلى التراجع ؛ لإفساح الطريق لرجلى الإسعافات ، اللذين انحنيا لفحص (أدهم) ، فغمغمت فى ضيق :

ـ خطأ .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى انقلبت الأمور رأسًا على عقب ، فى سرعة مخيفة ومدهشة ، خفق معها قلبها فى عنف ..

فجأة ، وبلا مقدمات ، دب نشاط جم فى جسد (أدهم) ، فوثب واقفًا على قدميه ، وركل أقرب المسعفين إليه ، وهو يقول :

ـ معذرة ، ولكنك تعوق طريقى .

ارتفعت فوهات مدافع قائد القوات ورجليه نحوه مباشرة ، إلا أنه تحرك بسرعة مذهلة ، ومرونة تتجاوز كل الحدود ، فوثب متجاوزًا رجل الإسعاف الثانى ، وركل مع وثبته المدفع الآلى ، الذى يحمله أحد الرجلين ثم دفع الرجل نفسه نحو قائده ، وهو يلتقط مدفعه فى الهواء ، فى نفس اللحظة التى أطلق فيها الرجل الثانى رصاصات مدفعه نحوه مباشرة ..

وفى مساحة صغيرة محدودة كهذه ، كان من المستحيل أن يخطئ ذلك الجندى المرتزق المحترف هدفه ..

ولكن الهدف نفسه ، لم يكن هدفًا عاديًا .

لقد كان هدفًا خاصًا للغاية ..

هدف يحمل لقبًا فريدًا بين أقرانه ..

لقب (رجل المستحيل) ..

ففى الفراغ الضيق ، داخل الزنزانة الصغيرة ، وثب (أدهم) متعلقًا بأعلى القضبان ، متفاديًا الرصاصات ، التى انطلقت نحوه مباشرة ، والتى لم تجده فى طريقها ، فاستقر بعضها فى الجدار ، والبعض الآخر فى جسدى المسعفين ، اللذين سقطا أرضًا ، وتفجرت دماؤهما فى المكان ..

وكإعصار قوى عنيف ، انقض (أدهم) على حامل المدفع الآلى ، وأمسك معصمه بقوة ، ليلويه بحركة حادة ، وقبضته الأخرى تهوى على فك الرجل كالقنبلة ..

وقبل أن يسقط الرجل أرضًا ، كان زميله ينقض على (أدهم) ، وقائده يرفع فوهة مدفعه الآلى نحوه ..

وبحركة مرنة مدروسة ، أمسك (أدهم) ذراعى الرجل المتعلق

بعنقه ، وطوّح به بكل قوته ، ليرتطم بقائده ، الذى انطلقت رصاصات مدفعه الآلى فى سقف الممر الخارجى ، وهو يرتطم بجداره فى عنف ..

ومع تلك المشهد ، تحركت الزعيمة فى سرعة ، وضغطت زر إغلاق باب الزنزانة الإليكترونية ، فى لوحة التحكُّم الشاملة أمامها ، وهى تقول فى حنق :

ـ لعبة بارعة بحق يا (أدهم) .. من الواضح أنك لم تفقد مهارتك المتميِّزة بعد .

إثر ضغطتها ، تحرك باب الزنزانة فى سرعة ، فى طريقه إلى الإغلاق ، و(أدهم) مازال داخلها ..

وتحرك (أدهم) أيضًا بمنتهى السرعة ..

وكان سباقًا بين الرجل والآلة ..

سباق يمكن أن ينتهى بخروجه من تلك الزنزانة الإليكترونية ، أو سجنه داخلها مرة أخرى ..

والسجن سيعنى هذه المرة أن فرصته فى النجاة ستنخفض إلى حد مخيف ..

حد قد يبلغ الصفر ..

ولم يكن لديه استعداد لهذا ..

أدنى استعداد ..

لذا ، فقد وثب (أدهم) ..

وثب وثبة أذهلت الزعيمة نفسها هذه المرة ، مع قوتها ، ومرونتها ، والزاوية العسيرة التى اتخذتها ..

وثبة جعلته ينفذ عبر الفراغ المتبقى ، بين جدار الزنزانة ، وبابها الذى ينزلق نحوه فى سرعة ..

وعندما أتم الباب رحلته ، كان (أدهم) خارج الزنزانة بالفعل ..

وفى مواجهة رجلين من المقاتلين المحترفين ، أحدهما يحمل مدفعًا آليًا ، ويصوِّبه إلى صدره مباشرة ، وهو يهتف ، عبر جهاز اتصال داخلى محدود ، التقطه من حزامه :

ـ النجدة .. طوارئ قصوى ، فى الممر (م ـ ٧) .. طوارئ قصوى ..

وقبل أن يكتمل هتافه ، كان يضغط زناد مدفعه الآلى ، ويطلق رصاصاته ، نحو صدر (أدهم) ..

مباشرة ..

وتحرك (أدهم) بأقصى سرعته ، محاولاً تفادى الرصاصات ، ولكنه شعر بعمود من النار ، يخترق كتفه اليسرى ، وينفذ منها ، وهو يثب بحركة مزدوجة ؛ ليركل المدفع الآلى من يد قائد القوات ، ويحطم أنفه فى اللحظة نفسها ..

وبغضب هائل ، هب الرجل الآخر ، لينقض على (أدهم) ، وهو يطلق صرخة وحشية رهيبة ..

كان (أدهم) يحمل بالفعل ذلك المدفع الآلى ، الذى التقطه من الرجل الأول ، إلا أن غريزته التلقائية ، التى لاتميل إلى القتل وإراقة الدماء ، إلا للضرورة القصوى ، جعلته يستقبل انقضاضة جندى المرتزقة الضخم بانحناءة سريعة ، تجاوزت قبضته ، التى لكمت الهواء ، قبل أن تغوص قبضة (أدهم) فى معدته كمطرقة من الفولاذ ، ثم ترتفع لتحطم ثلاثة من أسنانه ، بلكمة ساحقة ..

وفى قوة وحزم ، وعلى الرغم من الدماء التى تنزف من إصابة كتفه ، اعتدل (أدهم) ، حاملا مدفعه الآلى ، ليواجه آلات المراقبة فى الممر ، وهو يقول ساخرًا :

ـ أتعشم ألا يكون هذا قد فاجأك ، يا زعيمة الأوغاد !

فاجأه صوتها الهادىء المتماسك ، وهى تقول :

ـ مطلقًا يا عزيزى (أدهم) ، فمعك ينبغى أن يتوقع المرء أى شىء ، وكل شىء .

أدهشه هدوؤها بحق ، فقال بشىء من الحذر ، دون أن يتخلى عن ابتسامته الساخرة :

ـ من الواضح أن هذا لم يزعجك !

أجابته بنفس الهدوء :

ـ ربما فى اللحظات الأولى فحسب ، ثم لم ألبث أن استوعبت الأمر كله فى سرعة ، وعلمت كيف فعلتها ، وخاصة بعد أن راجعت تقارير مجسات الحركة ، التى لم أفهم مغزاها فى حينه .

سألها فى سخرية :

ـ وما الذى توصلت إليه أيتها العبقرية ؟!

بدت له هادئة ، أكثر مما ينبغى ، وهى تقول :

ـ الفراش المطاطى يا عزيزى (أدهم) .. لقد انتزعت بعض القطع منه ، وحشوتها بين معصمك والسوار ، لتصنع منها عازلاً ، يقيك الصدمة الكهربية ، التى يمكن أن تنطلق منه ، عند محاولة انتزاعه المحدودة ، والتى تظاهرت بالإصابة بها ، على نحو تستحق معه جائزة (الأوسكار) ، لبراعة الأداء التمثيلى .

هزّ رأسه فى سخرية ، قائلاً :

ـ أنت بارعة بحق .

سألته فى اهتمام واضح :

ـ الأمر الذى لم أفهمه بعد ، هو كيف انخفضت نبضات قلبك على هذا النحو ؟!

هزّ كتفيه ، وهو يقول :

ـ إنه أمر بسيط يا زعيمة الأوغاد ، يعتمد على التوافق بين معدلات التنفس والنبض .. مهارة بسيطة ، يمكن أن يكتسبها أى ممارس لطقوس (اليوجا)(*) .

صمتت لحظة ، ثم قالت بهدوئها السابق :

ـ يبدو أن مهاراتك بلا حدود يا عزيزى (أدهم) .

قال فى سرعة وسخرية :

ـ أخجلتم تواضعنا يا زعيمة الحمقى .

ثم غمز بعينه ، مستطرداً :

ـ وبمناسبة الحديث عن الحمقى .. أراهن أنهم سيتفقون هنا

(*) اليوجا : كلمة سنسكريتية ، معناها (اتحاد) وتُطلق على الممارسات الصوفية فى الهندوكية ، وهى تعتمد على تخلص الإنسان من المشاعر الجسدية والحسية وإطلاق ملكات روحه ، عن طريق بعض التدريبات الدقيقة المتواصلة ، التى تشمل الجسد كله ، داخله وخارجه .

بعد لحظات ، بعد نداء الاستغاثة المذعور ، الذى أطلقه ذلك الفحل ، الذى يرتدى زى القيادة ، قبل أن يفقد وعيه ، والمفترض أن أستعد لاستقبالهم كما ينبغى .

أتته ضحكتها العابثة ، قبل أن تقول :

ـ كلاّ يا عزيزى (أدهم) ، يؤسفنى أن أخيب توقعاتك هذه المرة ، ولكننى ألغيت نداء قائد قواتى ، إذ لم يبد لى ضرورياً إلى حد ما .

وأطلقت ضحكة قصيرة أخرى ، لتضيف بعدها فى شراسة :

ـ فلم يحدث فارق كبير .

مع قولها ، هبط حاجزان من الصلب ، فى سرعة مباغتة ؛ لإغلاق الممر من طرفيه ، وهى تتابع :

ـ لقد تغير حجم زنزانتك فحسب .

ومع آخر عبارتها ، تردد فى الممر المغلق صوت ضحكتها الساخرة الظافرة ..

وانعقد حاجبا (أدهم) ..

لقد بذل أقصى طاقته هذه المرة ، ولم يحظ إلا بالفشل .. الفشل الذريع .

* * *

٦- المصيدة ..

بدا الاهتمام واضحاً ، على وجه المساعد الأول ، لمدير المخابرات المصرية ، وهو يضع أمام هذا الأخير برقية قصيرة ، وصلت على التو من (واشنطن) ، قائلاً :

- لقد بدأت الخطة الاحتياطية يا سيادة المدير .

ألقى المدير نظرة على البرقية ، التى تحوى جملة تقليدية واحدة ، وقال فى شىء من الارتياح :

- عظيم .

قال المساعد فى حذر :

- لم نتوصل بعد إلى أية معلومات مؤكدة ، بخصوص سيادة العميد (أدهم) ياسيادة المدير .

مطّ المدير شفتيه ، وهو يهز رأسه ، قائلاً :

- هناك مثل بريطانى قديم ، يقول : « لا أخبار يعنى أخبار جيدة .. »

قال المساعد بنفس الحذر :

- ليس بالضرورة يا سيدى .

اعتدل المدير ، قائلا :

- بالتأكيد .

ثم نهض إلى خريطة العالم ، المعلقة على جدار حجرة مكتبه ، متابعاً :

- ولكننا بحثنا كل الاحتمالات ، وتأكدنا فى النهاية من أنه لم يلق مصرعه فى قلب المحيط ، ولما كانت مقاتلته لم تصل أبداً ، إلى السواحل الأمريكية ، فهذا يعنى أنه ما زال هناك .

وأشار بسبابته إلى الخريطة ، مستطرداً فى حزم :

- فى قلب المحيط الأطلنطى .

تساءل المساعد فى اهتمام :

- أشير إلى نظرية الغواصة الخفية يا سيدى ؟!

التفت إليه المدير ، قائلاً فى حزم :

- لم تعد مجرد نظرية يا رجل .

وعاد إلى مكتبه ، قبل أن يتابع فى رصانة ، لم تخل من الاهتمام :

– ما فعلته تلك الزعيمة الغامضة ، منذ أقل من ساعة واحدة ، يؤكد أن تلك الغوّاصة موجودة بالفعل ، فى مكان ما ، تحت مياه المحيط ، وأنها تمنع أية محاولة للعثور عليها ، أو تحديد موقعها مهما كان الثمن .

هزّ المساعد رأسه فى اهتمام مماثل ، وهو يقول :

– هذا صحيح يا سيّدى .. لقد نسفت حاملة طائرات ومدمرتين ، من قطع الأسطول الأمريكى ، خلال دقيقة واحدة ، بوساطة ذلك المدفع الليزرى الفضائى ، الذى يحمله القمر الصناعى الدفاعى ، الذى سيطرت عليه تمامًا ، وكان من الطبيعى أن ينشغل الأمريكيون بانتشال المصابين ، والبحث عن جثث القتلى ، وأن يوقفوا فورًا عملية تمشيط المحيط ، بحثًا عن تلك الغوّاصة ، التى أدركوا أن صاحبتها لن تسمح لهم بالعثور عليها قط .

أشار المدير بسبّابته ، قائلاً :

– بالضبط .

صمت المساعد بضع لحظات ، ثم قال فى أسف :

– الأمر يبدو بالغ الخطورة هذه المرة يا سيادة المدير ، فمع كل المحاولات المجنونة ، للسيطرة على العالم ، تبدو لى هذه الأقرب إلى تحقيق الهدف .

هزّ المدير رأسه نفيًا ، وهو يقول فى حزم :

– مستحيل ! لن يتحقق هذا أبدًا .. لا أحد أمكنه أن يبلغ هذا ، عبر التاريخ كله .

تردّد المساعد بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حذر :

– وماذا عن (أمريكا) ؟!

أجابه المدير برصانته الحازمة :

– ربما تتصوّر (أمريكا) أنها زعيمة العالم ، وأنها قادرة بالفعل على السيطرة عليه ، ولكن مجريات الأحداث ، فى الآونة الأخيرة ، تشير إلى عكس هذا تمامًا ، ففى موضوع (العراق) مثلاً ، تآزر العالم كله تقريبًا ضدها ، ولم تؤيّدها سوى (بريطانيا) فقط تقريبًا ؛ لأسباب سياسية واقتصادية .

قال المساعد فى اهتمام :

– وعلى الرغم من هذا ، فقد تحدت العالم كله ، وهاجمت (العراق) ، واحتلته عسكريًا بالفعل .. ألا يثبت هذا سيطرتها على العالم ؟!

ابتسم المدير ، قائلاً :

ـ بل يثبت أنها من الصفاقة والغطرسة ، بحيث تتحدى العالم كله ، ولكن ما فعلته أورثها مقت وكراهية العالم كله ، كما خلق موجة من السعى للتفوق ، والاستقلال الاقتصادى والسياسى عنها ، حتى إن بعض الدول تنادى بإلغاء منظمة الأمم المتحدة ، مع كل ما تملكه (أمريكا) فى امتيازات داخلها ، على رأسها حق الفيتو ، أو الاعتراض على قرار اتفقت عليه الدول جميعها ، وإنشاء منظمة دولية جديدة ، تتساوى فيها حقوق الدول ، ولا يصدر القرار فيها إلا بموافقة معظمهم ، دون أن تكون لأية دولة أحقية الاعتراض ، أو إلغاء القرارات قهرًا(*) . وهذا يعنى أن (أمريكا) تفقد زعامتها للعالم بالفعل ، وخذها منى كلمة ، لن يمضى عقد آخر من الزمان ، حتى ترى انهيارها الداخلى بعينيك ، وتدرك كيف تنهار الحضارات ، عندما يغزوها غرور القوة والغطرسة .

وافقه مساعده بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ هذا ما نتمناه جميعًا يا سيدى ، ولكننى أعتقد أن تلك الزعامة الغامضة يمكن أن تفوق (أمريكا) ، فى هذا المضمار ، نظرًا لجهل الجميع بشخصيتها ، وموقعها ، وحتى أسلوب عملها .

(*) حقيقة .

تنهد المدير ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

ثم اعتدل ، مستدركًا فى حزم :

ـ إنها تتحرك فى سرعة ، وتضرب ضرباتها دون هوادة ، ودون أن تمنح الآخرين فرصة للتدبير والتفكير ، وحسن اتخاذ القرار .

أشار المساعد بيده ، قائلاً :

ـ هذا جزء من براعة اللعبة يا سيدى .

قال المدير فى سرعة :

ـ بل هو كل البراعة هذه المرة ، فأسلوبها المدروس أربك القيادات ، فى الإدارة الأمريكية ، ودفعتهم نحو سلسلة من المعارك المتصلة ، على نحو يحبس أنفاسهم ، ويرهق أذهانهم ، ويمنعهم من التفكير بروية وهدوء ، حتى يمكنهم اتخاذ القرارات العقلانية المناسبة .

ابتسم المساعد ، وهو يقول :

ـ فى رأيى ، إنها تلعب على وتر غطرسة القوة الأمريكى ، فى الإدارة الحالية .

أشار إليه المدير بسبابته مرة أخرى ، قائلاً فى حزم :

- بالضبط .

هز المساعد رأسه ، قائلاً :

- ولكن مع براعتها وسرعتها ، يمكنها أن تبلغ مرحلة بالغة الخطورة والقوة ، قبل أن ينتبهوا إلى هذا ، ويخففوا من غلوائهم وغطرستهم ، ويبدءون فى التعامل معها كما ينبغى .

تنهّد المدير ، قائلاً فى أسف :

- هذا بالضبط ما تعتمد عليه ، وأظنها قد حققت بعض أهدافها الكبرى بالفعل ، فى مرحلة الصراع الأولى .

قال المساعد فى توتر ، وقد استوعب مدى خطورة الموقف :

- يا إلهى ! لابد من تحذير الأمريكيين ، بأسرع وسيلة ممكنة ، حتى يمكنهم تغيير أسلوبهم ، قبل أن ..

قاطعه المدير فى حزم :

- لقد فعلت .

تطلّع إليه المساعد ، فى تساؤل متلهف ، فتابع بنفس الحزم :

- ولكنهم تجاهلوا تحذيرنا تمامًا ، باعتبار أنهم يعرفون عن الموقف أكثر مما نعرف ، وأنهم قادرون على التعامل معه بحرفية أكثر .

ثم أدار عينيه إلى الخريطة الكبيرة ، مضيفًا :

- لذا ، فالأمل الوحيد فى إيقاف طموحات تلك الزعيمة المهووسة بالسيطرة على العالم ، بعد الله (عز وجلّ) هو (ن - ١) .

واستدار إليه مرة أخرى مستدركًا :

- لو أنه ما زال على قيد الحياة .

وسرت قشعريرة باردة كالثلج ، فى جسد المساعد ، وهو يكرّر فى أعماقه تلك العبارة الأخيرة ..

لو أنه ما زال على قيد الحياة !

وعلى الرغم منه ، أضاف عقله عبارة أخرى ، وذهنه يحمل صورة (أدهم) ..

ولو أنه ظل على قيد الحياة !

وفى كل الأحوال ، وأيًا كانت العبارة الصحيحة بينهما ، لم يكن لديه جواب مؤكد على كلتيهما ..

أى جواب ..

على الإطلاق ..

* * *

« هل تدركون ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟! »

هتف وزير الدفاع الأمريكى بالتساؤل ، فى عصبية شديدة ، وهو يلوّح بذراعيه ، داخل المقر السرى للإدارة ، فعضت مستشارة الأمن القومى شفتيها ، وهى تقول فى مرارة ساخطة :

ـ بالتأكيد .

نقل الرئيس الأمريكى بصره بينهما فى توتر ، قبل أن يهتف فى حدة :

ـ هل يمكن لأحدكم أن يشرح لى ، ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه مدير مخابراته ، قائلاً :

ـ يعنى ببساطة أن الزعيمة الغامضة قد كشفت موقعنا هذا ، أو موقع مستر (X) ، وأنها استغلت الاتصال بيننا ، لتحديد الموقع الذى تجهله .

امتقع وجه الرئيس ، وهو يقول بصوت مرتجف :

ـ مستحيل ! المفترض أن هذا المقر سرى تماماً .. إنه ضمن خطة استمرار الحكومة ، التى لا يعرفها سوى ...

قاطعه مدير المخابرات ، دون أن يبالى بالقواعد الدبلوماسية أو البرتوكولية ، فى تلك اللحظة :

ـ لو أن لديها هذا العدد من العيون والآذان ، فى صفوف قياداتنا العليا ، كما يقول مستر (X) ـ فلن يصعب عليها الحصول على خطة استمرار الحكومة .

امتقع وجه الرئيس أكثر ، وهو يهتف مرتاعاً :

ـ حقاً ؟!

عضت مستشارة الأمن القومى شفتيها مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ لا يمكننا أن نستبعد هذا يا سيادة الرئيس ، فلقد تم تغيير خطة استمرار الحكومة ، بعد سقوط ذلك الجاسوس (روبرت هانسن) ؛ لأنه كان قد أبلغ المخابرات الروسية بالفعل ، بالخطة السابقة(*) .

بدا وكأن الرئيس قد انكمش فى مقعده الكبير ، ووزير الدفاع يقول فى عصبية شديدة :

ـ هذا يعنى أن مقرنا السرى لم يعد آمناً .

(*) حقيقة .

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

ـ لا يمكنك الجزم بعد .

هتف وزير الدفاع فى حدة :

ـ بعدما حدث أمامك .

رفع مدير المخابرات سبابته أمام وجهه ، وهو يقول فى حزم :

ـ ما رأيناه يعنى أنه كانت هناك محاولة لتعقب الاتصال الخاص ، بيننا وبين مستر (X) ، وهذا قد يعنى أن موقعنا معروف منذ البداية ، وأن المحاولة كانت لتعقب اتصال مستر (X) وتحديد موقعه ، أو قد يعنى العكس تمامًا .

قالت مستشارة الأمن القومى ، فى حزم غاضب :

ـ فى مثل هذه الظروف ، يكفى الشك وحده ، لمغادرة هذا المكان فورًا ، إلى مكان آخر .

عقد مدير المخابرات كفيه خلف ظهره ، وهو يقول :

ـ أو ربما يكفى للعودة إلى البيت الأبيض .

صاح به الرئيس مستنكرًا :

ـ ماذا تقول يا مدير المخابرات ؟! هل تقترح أن نضع أنفسنا فى بؤرة الخطر مرة أخرى ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه نفيًا ، وقال :

ـ بل أقترح أن نتوقّف عن التعامل بكل التوتر والعصبية ، والبدء فى اتخاذ منهج جديد للتعامل مع الموقف .. منهج أكثر عقلانية ومنطقية .

وانعقد حاجباه فى شدة ، مع استطرادته الصارمة :

ـ وأكثر هدوءًا .

احتقن وجه مستشارة الأمن القومى ، وهى تقول فى غضب :

ـ هل تظن نفسك ...

قاطعها الرئيس ، وهو يسأل مدير المخابرات فى توتر :

ـ هل تقترح شيئًا بعينه ؟!

أجابه مدير المخابرات بنفس الصرامة :

ـ بالتأكيد .

ثم بدأ يتحرك فى المكان ، متابعًا فى حزم :

ـ لو راجعتم أسلوب تلك الأفعى ، فى التعامل معنا ، منذ اللحظة الأولى ، لأدركتم أنها تسعى لإرهاقنا ، وتحطيم أعصابنا ،

وتشتت أذهاننا ، بضربات سريعة متلاحقة ، لا تمنحنا الفرصة لالتقاط الأنفاس ، ولقد انسقنا نحن خلفها دون أن ندرى ، ورحنا نتحرك بعصبية وعنف ، وقد أغضبنا ذلك الشعور ، بأننا أمام خصم مجهول ، لايمكننا السيطرة عليه .

قالت مستشارة الأمن القومى فى غضب :

ـ هذا أمر طبيعى .. إننا قادة (أمريكا) ، زعيمة العالم الجديد ، و ...

قاطعها فى الحزم :

ـ هذا بالضبط ما ينبغى أن نمحوه من أذهاننا .

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تهتف مستنكرة :

ـ ماذا تقول ؟!

أجاب فى سرعة وحزم :

ـ أقول إن شعورنا بالزعامة ، وبأننا حتماً أقوى من خصمنا ، هو الذى يستفز مشاعرنا ، ويدفعنا إلى ارتكاب الأخطاء والحماقات ، واحدة بعد الأخرى .. لابد إذن أن نبدأ فى التعامل معها بأسلوب جديد .. أسلوب يقرّ بأنها لا تقل عنا قوة وبراعة .

قال وزير الدفاع فى سخط واضح :

ـ ولكنها مجرّد ..

قاطعه مدير المخابرات فى سرعة :

ـ التقليل من شأنها يسىء إلينا ، بأكثر مما يسىء إليها يا سيادة الوزير ، فحسابات المكسب والخسارة ، تؤكد أنها الفائزة ، حتى هذه الجولة ، ومن العار ، كل العار ، أن يهزمك شخص قليل الشأن ، عندما تعتبر نفسك أكبر قوة ضاربة ، فى القرن الجديد .

غمغم الرئيس ، فى اهتمام وانتباه :

ـ هذا صحيح .

تراجع وزير الدفاع ، معقود الحاجبين ، ومطّت مستشارة الأمن القومى شفتيها ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فتابع مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ سنبدأ المرحلة الجديدة على نحو مختلف إذن .. سنتعامل مع تلك الزعيمة المجهولة ، كما كنا نتعامل مع السوفيت ، فى الماضى .. سنعتبرها قوة عظمى مساوية لنا ، ونضع خططنا من هذا المنطلق .

قالت مستشارة الأمن القومي ، في امتعاض واضح :

ـ قوة عظمى ؟!

قال مدير المخابرات في صرامة :

ـ نعم .. قوة عظمى .. قوة قادرة على هزيمتنا ، لو لم نتخذ القرار الصحيح ، في الوقت الصحيح .

هزّت مستشارة الأمن القومي رأسها ، معلنة رفضها لما تسمعه ، وأطلق وزير الدفاع زفرة طويلة ملتهبة ، في حين تساءل الرئيس في اهتمام :

ـ وما الذي تقترحه بالضبط ، في هذه المرحلة الجديدة ؟!

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، وهو يدير عينيه في وجوههم ، قبل أن يشد قامته ، ويجيب في حزم صارم شديد :

ـ أن نطيع أوامرها .

اتسعت عينا الرئيس الأمريكي عن آخرهما ، وتراجع في مقعده بحركة حادة كالمصعوق ، ومال وزير الدفاع برأسه نحو مدير المخابرات ، محدقًا فيه بذهول مستنكر ، في حين قالت مستشارة الأمن القومي في بطء :

ـ كنت أعلم هذا .

ثم انفجرت فجأة ، مكرّرة بثورة هائلة :

ـ كنت أعلم هذا .

ولوّحت بسبّابتها في وجه مدير المخابرات ، صارخة :

ـ أنت تعمل لحسابها .

انتفض جسد مدير المخابرات بمنتهى العنف ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ أنا ماذا ؟!

ثم احتقن وجهه بشدة ، وهو يجذب مسدسه من غمده في غضب ، مستطردًا في شدة قاسية :

ـ الجواب الوحيد ، الذي يمكن أن أمنحه لاتهامك هذا ، هو رصاصة في رأسك .

صرخت فيه :

ـ أطلقها على رأسك أنت أيها الخائن الـ ....

قبل أن تتم عبارتها ، انطلقت في المكان فجأة ضحكة عابثة ، شامتة ، ساخرة ، بصوت يعرفونه جميعًا .

صوت جعلهم يلتفتون معًا ، في ذهول مذعور ، إلى شاشة

التلفاز الكبير ، فى المقر السرى ، والتى أضيئت وحدها ، وظهرت عليها صورة الزعيمة الغامضة ، وهى تنفث دخان سيجارتها الحمراء الطويلة ، وتقول فى سخرية ظافرة مستفزة :

ـ من الممتع لى أن أشاهدكم تتصارعون على هذا النحو .. أراهن أن شبكات التليفزيون الأمريكية مستعدة لدفع ملايين الدولارات ، لبث مشهد كهذا .

نطقتها ، وعادت تطلق ضحكة عابثة ساخرة طويلة ، تجمدت لها الدماء فى العروق ، وارتجفت معها القلوب .. كل القلوب ..

* * *

عندما أغلقت الزعيمة الغامضة تلك الممر من الطرفين ، كانت تتوقع ، نظرًا لمعرفتها الجيدة لطبيعة (أدهم) ، أنه سيتحرك على الفور ، بمنتهى القوة والنشاط ، ودون أن يضيع ثانية واحدة ، بحثًا عن وسيلة للخروج ، من زنزانته الجديدة هذه ..

لذا ، فقد أدهشها بحق ، أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ساخرة ، وهو يقول :

ـ فليكن يا زعيمة الحمقى .

ثم أمسك جيدًا تلك المدفع الآلى ، الذى انتزعه من أحد رجالها ، وألصق ظهره بجدار الممر المعدنى ، لينزلق فى بطء وهدوء ، جالسًا على أرضيته ، دون أن يضيف حرفًا واحدًا ..

وبحيرة حقيقية ، تراجعت الزعيمة فى مقعدها الوثير ، وتطلعت إلى الشاشة الراصدة ، وهى تنفث دخان سيجارتها ، متمتمة :

ـ ترى فيما تفكر بالضبط يا (أدهم) !

كانت ترغب بالفعل ، فى قراءة ما يدور فى عقله ، حتى لقد تمنت لو أنهم قد اخترعوا بالفعل ما يمكنها من هذا ، وخاصة عندما أسبل جفنيه ، واسترخى تمامًا فى مجلسه ، كما لو أنه قد راح فى نوم عميق هادئ ..

ولدقيقة كاملة ، ظلت تتطلع إليه ، دون أن توحى أية حركة من حركاته ، أو سكنة من سكناته ، أن خلية واحدة فى جسده تموج بالنشاط ، قبل أن تقول فى توتر :

ـ من حسن حظك أننى غير متفرغة لك الآن يا (أدهم) .. هيا .. ابق فى محبسك المنيع هذا ، حتى أنهى هذه الجولة الجديدة ، وأتفرغ لك .

قالتها ، ثم استدارت إلى شاشة اتصالات خاصة موقّتة ، ورسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة عابثة ، وهى تنصت فى اهتمام إلى ما يبلغها من أحاديث ، عبر أحد أقمار الاتصالات الصناعية ، التى سيطرت عليها بالفعل ، دون أن تفصح عن هذا ..

وعندما بلغ الحديث الحد الذى تريده ، ضغطت زرًا أمامها ، ثم عدّلت جلستها على مقعدها فى شىء من التعالى ، ونفثت دخان سيجارتها الطويلة الحمراء ، وهى تطلق ضحكة عابثة طويلة ، فى نفس اللحظة التى بدأ فيها الاتصال الخاص ، بينها وبين مقر قيادة الإدارة الأمريكية السرى ..

وفى نفس اللحظة ، التى بدأت فيها اتصالاتها ، كان ذهن (أدهم) يعمل بسرعة خرافية ، وتركيز مذهل ؛ لدراسة موقفه الدقيق ، والبحث عن مخرج ما ..

مخرج من زنزانة شديدة الإحكام ، إلى حد لا يتصور معه أحد وجود ثغرة واحدة فيها ، تسمح بالفرار ..

على أى نحو كان ..

ولكنه ما زال شديد الاقتناع بالنظرية الأساسية ، فى عالم الأمن ..

لا يوجد جهاز أمنى واحد ، خال من الثغرات ..

هذا لأن واضع النظام الأمنى هو بشر ..

مجرد بشر ..

والبشر أبدًا لا يكتملون ..

الكمال لله (سبحانه وتعالى) وحده ..

وهو يؤمن به (عزّ وجلّ) ، كما لا يؤمن بأى شىء آخر فى الوجود ..

ويؤمن بقاعدته الأولى ، التى لا تقبل الجدل ..

من يتق اللّه ، يجعل له مخرجًا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ..

إيمانه مع خبرته الواسعة ، سيرشدانه حتمًا إلى مخرج ما إذن ..

إلى ثغرة ما ، فى مكان ما ..

ثغرة لم تنتبه إليها تلك الزعيمة ..

أو حتى كل طاقم أمنها ..

لقد أعدت لكل شىء عدته ، واستخدمت أدق وأحدث نظم الأمن الإليكترونية ، من شاشات رصد ، ونظم اتصالات ، ومجسات حيوية بعيدة المدى ، وذلك السوار الأمنى الإليكترونى ، و ...

توقف تفكيره بغتة ، عند هذه النقطة ، وتفجّرت الكلمات الأخيرة فى ذهنه بقوة أكبر ..

السوار الإليكترونى الأمنى ..

الصدمة الكهربية الفائقة ..

نظم الأمن ..

والمراقبة ..

والاتصالات ..

وعلى الرغم من أنه لم ينهض من مكانه ، فقد فتح عينيه المتألقتين ، بمنتهى البطء والهدوء ، وأدارهما فى الممر فى دقة ، وخطته الجديدة تتكوّن ..

وتتكوّن ..

وتتكوّن ..

« كيف عرفت موقعنا السرى ؟! »

ألقى الرئيس الأمريكى السؤال ، فى عصبية شديدة ، وهو يتململ على مقعده ، فى تلك اللحظة ، فاندفعت مستشارة الأمن القومى السمراء ، تقول فى حدة :

ـ أنت تعرفينه منذ البداية .. أليس كذلك ؟!

أطلقت الزعيمة ضحكة عابثة أخرى ، قبل أن تقول فى صرامة مباغتة ، وقد انعقد حاجباها على نحو مخيف :

ـ معرفة أماكن تواجدكم ، ليست بالصعوبة التى تتصورونها ، على الرغم من كل إجراءاتكم الأمنية المعقدة ، وغطرسة القوة التى تجرى فى عروقكم مجرى الدم .

قالت مستشارة الأمن القومى فى غضب :

ـ غطرسة القوة لدينا لها ما يبررُها ، أما أنت ..

قاطعتها الزعيمة فى برود ، وهى تواصل نفث دخان سيجارتها الطويلة :

ـ (خالد بن على) .

انحبست الكلمات فى حلق مستشارة الأمن القومى ، واتسعت عيناها فى ارتياع شديد ، وتراجعت بحركة حادة كالمصعوقة ، فاتسعت ابتسامة الزعيمة الساخرة ، وهى تواصل :

ـ كان شابًا عربيًا وسيمًا وقويًا بالفعل ، وأشبه بالفارس ، فى زمن خلا من الفرسان ، وكل امرأة يمكن أن تقع فى غرامه ، من النظرة الأولى .

وصمتت لحظة ، قبل أن تضيف فى شماتة :

ـ تمامًا مثلما حدث معك .

استدارت العيون كلها إلى مستشارة الأمن القومى ، التى بدت منكمشة فى مكانها ، كفأر سقط فى مصيدة مهلكة ، فى حين واصلت الزعيمة ، بنفس السخرية الشامتة :

ـ ولكنه لم يحتمل عصبيتك ، وتعاليك ، وكومة العقد النفسية ، التى تموج بها عروقك ، لذا فقد نبذك ، و ...

انتفض جسد مستشارة الأمن القومى ، وهى تصرخ فجأة :

ـ فليكن .. لقد أحببت شابًا عربيًا مغرورًا ، لم يقدّر مواهبى وعواطفى ، وكان من الطبيعى أن ينفصل أحدنا عن الآخر .. إنها ليست سبة ، أو سببًا لنفعى إلى تجاوز قواعد الأمن هنا .

بدت الزعيمة هادئة أكثر مما ينبغى ، وهى تنفث دخان سيجارتها مرة أخرى ، وتلوّح بيدها ، قائلة :

ـ بالتأكيد .. أنا أتفق معك تمامًا يا عزيزتى .. إنها مجرّد قصة فشل عاطفية ، ربما تستغلها بعض وسائل الإعلام ؛ لتبرير عدد من التصنح العدوانية العنيفة ، التى قدمتها للرئيس الأمريكى ، ولكن كل هذا سيظل مجرّد تخمينات ، إلا إذا ..

انتبه الكل فى توتر واهتمام ، عندما نطقت كلمتها الأخيرة ، إلا أنها توقّفت بعدها ، لتلقى سيجارتها المنتهية بعيدًا ، ثم تشعل أخرى بقدّاحتها المرصّعة بالماس فى بطء ، قبل أن تتابع بابتسامة مقيتة :

ـ إلا إذا عرفت وسائل الإعلام المزيد ؛ ووجدت لديها بعض الوثائق ، التى تشير إلى الوسيلة ، التى حاولت بها الانتقام من فارسك العربى ، ومن دولته ، وكل الدول العربية الأخرى ، عن طريق التعاون ، مع الموسـ ..

بترت عبارتها مرة أخرى ، وأطلقت ضحكة عابثة طويلة ، امتقع لها وجه مستشارة الأمن القومى بشدة وبدا معها الارتياع ، على وجهى الرئيس ووزير دفاعه ، فى حين أدار مدير المخابرات عينيه إلى المستشارة فى دهشة مذعورة ، لم تلبث أن انقلبت إلى غضب هادر ، فى حين أطلقت الزعيمة ضحكة عابثة طويلة ممطوطة ، قبل أن تقول :

ـ ولكننى أعتقد أنه من غير اللائق ذكر هذا هنا .

ران على الحجرة السرية صمت رهيب ، دام لعدة ثوان ، قبل أن يغمغم الرئيس الأمريكى فى خفوت :

ـ مستحيل !

أسرعت الزعيمة تقول بلهجة مستفزة :

ـ لا يوجد مستحيل يا سيادة الرئيس ، فى الحب وفى الحرب ، وفى السياسة أيضًا ، فيحكى أنه ، فى فترة ما من التاريخ الأمريكى ، كان هناك زميلا دراسة ، ارتكبا معًا أخطاءً يندى لها الجبين ، وعرف كل منهما سر الآخر ، ونقاط ضعفه ، ثم دارت دورة الزمن ، وأصبح أحدهما رئيس وزراء عدوانى ، فى حين صار الثانى رئيسًا لأقوى دولة فى العالم ، و ...

قاطعها الرئيس فى سرعة ، وقد شحب وجهه على نحو مخيف :

ـ ماذا تريدين بالضبط أيتها الزعيمة ؟!

ابتسمت فى ظفر ، وفى ثقة من اطمأنّ إلى فرض سيطرته التامة على الموقف ، وهى تجيب فى بطء :

ـ لقد أخبرتكم بالفعل ما أريده .

وقسا صوتها إلى حد مخيف ، مع إضافتها :

ـ مائة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) .

وبرقت عيناها ، وهى تكمل :

ـ خلال اثنتى عشرة ساعة فحسب .

هتف وزير الدفاع فى ذعر :

ـ ماذا ؟! هذا مستحيل !

وشهقت مستشارة الأمن القومى فى عصبية ، فى حين قال مدير المخابرات ، وهو يبذل جهدًا خارقًا ، ليبدو متماسكًا أمامها :

ـ أنت تعلمين أن الوقت لن يكفينا لفعل هذا .

هزت كتفيها على الشاشة ، قائلة فى لامبالاة :

ـ يمكنكم إصدار أوامر إعداد الشحنة وتجهيزها الآن ؛ توفيرًا للوقت .

قال الرئيس فى حدة :

ـ حتى لو فعلنا هذا ..

قاطعته بمنتهى الصرامة والحزم :

ـ ستصلكم تعليمات الشحن ، وطريقة وموعد التسليم ، خلال ثلاث دقائق فحسب ، عبر جهاز الفاكس الخاص ..

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى سخرية شرسة :

ـ والسرى للغاية !

تبادل جميعهم نظرة مفعمة بالتوتر والانفعال ، مع هذا التحدى الجديد السافر ، قبل أن تقول مستشارة الأمن القومى ، محاولة السيطرة على ذلك اللهيب المستعر فى أعماقها :

ـ تعلمين بالطبع أن ما قيمته مائة مليار دولار من الذهب ، يختلف تمام الاختلاف ، عما قيمته مائة مليار دولار من الماس ، فالأخير يمكن انتقاء نقاوته ، وجمعه كله فى حقيبة يد ، أما الأول ، فهو حمولة ضخمة ، وثقيلة للغاية .

أطلقت الزعيمة الغامضة ضحكة ، ساخرة عالية ، وقالت فى تلذذ وحشى عجيب :

ـ أعلم هذا يا عزيزتى العاشقة ، ولكن لدى أسلوبى الخاص فى التفكير ، وسأخبركم ما لدى ، ولكن فى ...

بترت عبارتها بغتة ، على نحو أثار انتباههم كثيرًا ، وبخاصة مدير المخابرات ، الذى بدا شديد الاهتمام ، بما بدا وأنه يشتت تفكيرها فى وكرها ، مما جعلها تبعد عينيها عن شاشة اتصالاتهم لحظة ، ثم تتطلع فى انتباه متوتر إلى نقطة أخرى ، قبل أن تعود إليهم ، وتقول فى سرعة ، محاولة رسم ابتسامة واثقة على شفتيها :

ـ فى اتصال آخر .

ومع آخر حروف كلمتها ، أنهت الاتصال الخاص ، وتركت أجهزة منع التعقب تعمل بأقصى طاقتها ، وهى تتابع بمنتهى الاهتمام شاشة الرصد ، التى تنقل إليها ما يدور داخل الممر ، الذى عزلت (أدهم) فيه ..

فى تلك اللحظة ، كان (أدهم) يقوم بعمل عجيب ..

عجيب بالفعل .

* * *



٧- رجل .. ورجال ..

« ما زال الأمر يدهشني بحق يا سيادة المدير ! »

نطق المساعد الأول، لمدير المخابرات العامة المصرية العبارة، في حيرة حقيقية، وهو يطالع تقريرًا، وردَ من الولايات المتحدة الأمريكية، منذ دقائق قليلة، فرفع المدير عينيه إليه، يسأله في هدوء :

ـ ولماذا يدهشك ؟!

قال المساعد في اهتمام :

ـ الفريق الاحتياطي، الذي أرسلناه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، معروف للأمريكيين تمامًا، وعلى الرغم من هذا، ومن التعقيدات الشديدة، في نظم منح تأشيرات الدخول، في كل السفارات الأمريكية عبر العالم، فقد أمكنهم السفر إلى هناك، وتجاوز تعقيدات جهاز الأمن الداخلي(*)، في سهولة غير متوقَّعة !

(*) جهاز الأمن الداخلي : هو جهاز أمني خاص، نشأ بقانون عاجل، مع بدايات الألفين واثنين، وعقب ضربة الحادي عشر من سبتمبر، لتقييد حرية أي شخص، داخل حدود الولايات المتحدة الأمريكية، أو أي شخص يرغب في زيارتها، تحت أية مسميات، ويعتبر أفراد جهاز الأمن الداخلي فوق كل قانون .

ابتسم المدير، قائلاً :

ـ المفترض ألا يدهشك هذا يا رجل .. لقد أرسلنا الفريق الاحتياطي، تحت رعايتنا الخاصة .

تساءل المساعد، وقد تضاعفت حيرته :

ـ ولكن كيف ؟!

التقط المدير نفسًا عميقًا، وهو يجيب :

ـ الكل سافروا بجوازات سفر دبلوماسية، تتبع رياسة الجمهورية مباشرة، وبتصريح من وزارتي الداخلية، في (مصر) و(أمريكا)، بحجة أنهم في مهمة خاصة وعاجلة .

تساءل المساعد :

ـ وماذا عن هوياتهم المعروفة للأمريكيين ؟! ألن يصبح الأمر أكثر تعقيدًا، عندما يحصلون على بصماتهم، عند دخول الولايات المتحدة الأمريكية، وفقًا للإجراءات المتبعة حاليًا، ويعلمون أنهم رجال مخابرات، مع ما يحملونه من تصاريح رسمية ودبلوماسية ؟!

بدت ابتسامة المدير غامضة، على الرغم من هدوئها، وهو يجيب :

ـ فحص البصمات لن يسفر عن شيء .

هتف المساعد بكل الدهشة :

ـ ولكن ...

قاطعه المدير فى حزم :

ـ نحن أيضًا لنا عيوننا وآذاننا .

هتف المساعد :

ـ فى قلب الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ؟!

أجابه المدير ، فى حزم أكثر :

ـ فى كل مكان فى العالم .

ثم اعتدل على مكتبه ، وقال ، محاولاً تغيير دفة الحديث :

ـ قل لى : هل تم تحليل المعلومات الأخيرة ، التى أبلغنا بها الأمريكيون ؟!

أجابه المساعد فى سرعة :

ـ الخبراء يعملون على تحليلها الآن ، يا سيادة المدير .

ثم هز رأسه ، مستطردًا :

ـ الواقع يا سيدى أن الأمريكيين لم يتعاونوا معنا يومًا ، بمثل ما يفعلونه الآن .

ابتسم المدير ، قائلاً :

ـ هذا لأن التعاون المعلوماتى معنا ، يفيد موقفهم الأمنى هذه المرة ، ويحقق مصالحهم المباشرة .

تردد المساعد لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ربما لهذا سمحوا لفريقنا الاحتياطى بالدخول .

قال المدير فى صرامة :

ـ فريقنا وصل إليهم ، دون أن يدركوا هذا .

تساءل المساعد فى اهتمام :

ـ ولكن لما كنا نفتقر إلى الكثير من المعلومات ، عن تلك الزعيمة الغامضة ، أو حتى عن الموقع الحقيقى لسيادة العميد (أدهم) ، فما الذى يمكن أن يفعله فريقنا الاحتياطى هناك ؟!

أجابه المدير فى سرعة :

ـ سيكونون على أتم الاستعداد للتحرك فورًا ، وتنفيذ الخطة (ب) .

تساءل المساعد فى لهفة :

ـ متى ؟!

بدا المدير شديد الصرامة والحزم ، وهو يجيب :

ـ عندما تحين اللحظة المناسبة .

وفي مثل تلك الظروف ، بدت عبارته غامضة بحق .. للغاية ..

* * *

لم يتوقف جسد مستشارة الأمن القومي الأمريكية عن الارتجاف لحظة واحدة ، من فرط التوتر والانفعال ، طول طريق العودة ، من المقر السري ، إلى مكتب الرئيس الأمريكي ، داخل البيت الأبيض ، ولم يكد يستقر بها المقام هناك ، حتى قالت بمنتهى الحدة والعصبية :

ـ تلك الحقيرة تفرض سيطرتها علينا تمامًا .

قال الرئيس في توتر :

ـ مدير المخابرات كان على حق .. ينبغي أن نركز جهودنا كلها في البداية ، على كشف الثغرات في نظامنا الأمني ، ونقاط تسريب المعلومات لدينا ، حتى نمنعها من معرفة كل ما تنوي فعله .

جعلتها عبارته تلتفت حولها في عصبية ، قبل أن تتساءل في حدة :

ـ هل تم تأمين مكتبك هذه المرة ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ مدير المخابرات تولى الأمر بنفسه هذه المرة ، وبوساطة فريق من أقرب رجاله .

مطت شفتيها ، مغمغمة في مقت :

ـ أتعشم أن يفلح هذا .

أطلق زفرة ملتهبة ، حملت كل توتراته وانفعالاته ، قبل أن يقول :

ـ تلك المرأة خطيرة للغاية .. إنها تعرف أمورًا ، لم أتصور أن يعرفها أحد .

انعقد حاجبا المستشارة ، بكل توتر الدنيا ، فتابع في صرامة ، لم تخل من العصبية :

ـ وهذا ينطبق على كلينا .

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهي تدور في المكان ، في انفعال شديد ، قبل أن تقول :

ـ من حسن حظنا أننا وحدنا الآن ، بعد أن ذهب وزير

الدفاع ؛ لإعداد شحنة ذهب (فورت نوكس) ، وعاد مدير المخابرات إلى مقر قيادته فى (لانجلى) ؛ لمراجعة كل المعلومات الأخيرة وتحليلها ، وهذا يمنحنا الفرصة للمصارحة كاملة .

غمغم الرئيس ، فى صوت أقرب إلى الزمجرة :

ـ لا ضرورة لهذا .

قالت فى عصبية :

ـ لقد سمعت ما قالته تلك الحقيرة .

كرّر فى صرامة :

ـ قلت : لا ضرورة لهذا .

واصلت فى إصرار عصبى ، وكأنها لم تسمعه :

ـ لقد أشارت إلى تعاونى السابق ، مع جهاز الموسـ ...

قاطعها فى حدة هذه المرة :

ـ أنا أعرف هذا .

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تهتف :

ـ تعرفه ؟!

مال إلى الأمام ، مضيفاً بكل الصرامة :

ـ ومنذ اللحظة الأولى .

كررت عبارته ، وجسدها ينتفض فى عنف أكثر :

ـ منذ اللحظة الأولى ؟!

تراجع الرئيس ، وهو يقول فى حزم ، لم يخل من الانفعال :

ـ لماذا تصورت أننى قد اخترتك بالتحديد ، لمنصب مستشارة الأمن القومى ؟!

اتسعت عيناها ، وهى تحدق فيه ، فتابع فى انفعال أكثر :

ـ لقد كانت نصيحة الأصدقاء هناك .

رددت ، فى لهجة أقرب إلى الذعر :

ـ هناك ؟!

عاد يميل نحوها ، ويقول بلهجة بلغت ذروة الانفعال :

ـ فى تل أبيـ ....

قاطعته فى حدة :

ـ كفى .

ثم التقطت نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على انفعالها الجارف ، واضطرابها الشديد ، قبل أن تضيف بصوت مرتجف مختنق :

ـ لقد فهمت .

وصمتت بضع لحظات ، ثم قالت فى حدة :

ـ المشكلة أن تلك الحقيرة تعلم هذا ، وأنا واثقة من أنها تملك من الوثائق ، ما يكفى لفضح أمرنا ، وتدمير مستقبلنا تمامًا ، ولست أدرى ما الذى يمكن أن نفعله .

أجابها الرئيس فى سرعة وحزم :

ـ أن ننفذ كل ما تطلبه منا .

استدارت إليه ، صائحة فى استنكار :

ـ مـاذا ؟!

تراجع فى مقعده ، وقال فى حزم :

ـ أيهما تختارين ، فى موقف كهذا ، (أمريكا) أم ....

وبتر عبارتـه ، ليميل نحوها مـرة أخرى ، مضيفًا فـى صرامة :

ـ أم نحن ؟!

احتقن وجهها بشدة ، والتقطت نفسًا عميقًا ، فى عصبيـة شديدة ، قبل أن تجلس على أول مقعد صادفها ، قائلـة فى حدة :

ـ ولكن كيف ستسلمها حمولة من الذهب ، تساوى مائـة مليار دولار .

زفر فى توتر ، محاولاً إفراغ انفعاله ، وتراجع فى مقعده ثانية ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ هى ستخبرنا .

ولم تنبس مستشارة الأمن القومى ببنت شفة ..

فقد كان هذا هو القول الفاصل ..

والأخير ..

* * *

على شاشة الرصد التى تنقل كل ما يدور فى ذلك الممر ، الذى سجنت فيه الزعيمة (أدهم) ، بدا هذا الأخير ، وهو ينتزع إحدى كاميرات المراقبة فى عنف ، ويجذب طرفى السلك ، الذى تخلّف عن انتزاعها ، ثم يوصلهما بذلك السوار الأمنـى الإليكترونى ، الذى يحيط بمعصمه ، فقالت الزعيمة فى توتر ، لـم تستطع إحاطته بغلاف من البرودة الظاهرية كعادتها :

- إنك تتجاوز حدودك هذه المرّة يا (أدهم).

هزّ كتفيه، وهو يواصل عمله، قائلاً في سخرية:

- هذا يتوقّف على من يضع الحدود، يا زعيمة الحمقى.

قالت، وهي تنفث دخان سيجارتها في قوة:

- إنك تستنفد صبري، الذي منحتك منه الكثير، ولاتتوقع أنني سأمنحك المزيد هذه المرّة.

قال بنفس السخرية:

- ما أتوقّعه، بعد دراسة كل ما حدث، هو أنك لاترغبين في قتلي أيتها المتحذلقة، بل في هزيمتي.. أو أنك تدخرينني لأصبح شاهدًا على لحظة انتصارك، قبل الفتك بي.

أحنقها أن أدرك هدفها، ولكنها قالت في صرامة:

- توقعاتك لن تكون دومًا صائبة، يا رجل المخابرات المصري.

قال في سخرية:

- ربما، ولكنني أراهن بحياتي عليها هذه المرّة.

تراجعت في مقعدها، ونفثت دخان سيجارتها في عصبية، في محاولة لإفراغ كل انفعالاتها، وهي تقول:

- أستطيع بضغطة زر واحدة، إطلاق جيش من رجالي المحترفين نحوك، من الجانبين.

قال في سخرية متحدية:

- هذا ما ستفعلينه حتمًا؛ فلقد فحصت الجدران، ولم أجد بها منافذ لإطلاق الغاز المنوّم في الممر، كما أن سوارك الإليكتروني قد فقد فاعليته، بعد العازل المطاطي، الذي وضعته بين معصمي وبينه، وأوغادك الثلاثة هنا ما زالوا فاقدي الوعي، كما لو أنهم غير مؤهلين لتلقي لكمات قوية كهذه.

انعقد حاجباها في غضب، وهي تقول:

- فليكن يا (أدهم).. أنت أردت هذا، ولقد ....

قبل أن تتم عبارتها، دفع هو سبابته، بين معصمه وتلك القطع المطاطية، التي تعزله من السوار الإليكتروني، ثم جذب السوار بقوة محدودة، وكأنما يحاول انتزاعه برفق..

وكرد فعل لمحاولة انتزاع محدودة، أطلق السوار شحنته الكهربية القوية، التي عزلتها القطع المطاطية عن جسد (أدهم)، فانطلقت عبر طرفي السلك، المتخفّي عن كاميرا المراقبة، التي انتزعها (أدهم)..

انطلقت لتفحص شبكة المراقبة الأمنية كلها ..

ودوت فى حجرة الزعيمة فرقعة مكتومة ، مع ذلك الجهد الكهربى العنيف ، الذى لم تحتمله أسلاك ووصلات شبكة المراقبة ، فاحترقت كلها دفعة واحدة ..

وانطفأت كل الشاشات ، فى حجرة الزعيمة ، فاعتدلت هذه الأخيرة فى غضب ، وهى تهتف ساخطة :

ـ كان ينبغى أن أتوقَّع هذا .

ثم جذبت من حزامها جهاز اتصال لاسلكى محدود ، وهتفت عبره فى صرامة شديدة ، لم يعتدها رجالها قط :

ـ استنفار عام .. انطلقوا إلى الممر (م ـ ٧) .. طوارئ قصوى .. المصرى يسيطر على الموقف هناك .. فقدنا السيطرة البصرية والسمعية أيضًا .. استخدموا جهاز الاتصال المحدود فقط ، وبالرموز الكودية المتفق عليها .. إنه يملك أجهزة مماثلة الآن ، لذا سيتم تغيير موجة الاتصال ، إلى موجة الطوارئ (ب) ..

والتقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تضيف ، فى صرامة أكثر :

ـ أريد استعادة السيطرة الكاملة على الموقف ، مهما كان الثمن .. هل تفهمون ؟! مهما كان الثمن .

وتوقَّفت لحظة ، لتعيد دراسة الموقف كله فى رأسها ، قبل أن تستعيد كل صرامتها وحزمها ، متابعة :

ـ وأريده حيًا .

أنهت الاتصال ، بعد أمرها الأخير ، وعادت تدير عينيها فى شاشات الرصد ، التى توقَّفت تمامًا عن العمل ، لتقول فى غضب :

ـ يبدو أنك ستضطرنى لتغيير القواعد يا (أدهم) .

وغيرت موجة الاتصال ، فى جهازها الخاص ، قبل أن تضغط زره ، قائلة فى صرامة :

ـ ما مدى الخسائر يا قسم الاتصالات ؟!

أتاها صوت مسئول قسم الاتصالات ، وهو يجيب فى توتر :

ـ لقد احترقت الشبكة كلها يا سيِّدتى .. لم تكن معُدة لاستقبال هذا الجهد الكهربى الشديد .. لم نتوقَّع حدوث هذا أبدًا ، ولو توقعناه لكنا قد ....

قاطعته فى صرامة :

ـ وكم يستغرق إصلاح هذا .

صمت المسئول بضع لحظات ، وكأنه يدرس الموقف ، قبل أن يجيب بنفس التوتر الشديد :

ـ الرجال يمكنهم إصلاحه ، خلال ساعة واحدة أيتها الزعيمة ، وهم يقترحون مد شبكة إضافية احتياطية ، تعمل فور انهيار الشبكة الأولى ، التى سيتم تزويدها هذه المرة بمقوّم تيار منتظم ، و .....

قاطعته فى غضب :

ـ كان ينبغى أن تفعلوا كل هذا منذ البداية .. إننا لن نصنع كل هذا ، ثم نترك ثغرة سخيفة تافهة كهذه ..

غمغم الرجل ، فى اضطراب شديد :

ـ سيدتى .. إننا لم ...

قاطعته فى وحشية هذه المرأة :

ـ ابدءوا عملية الإصلاح فورًا .. أريد استعادة السيطرة الكاملة ، خلال ساعة واحدة على الأكثر ، وإلا فستطير رءوس العديدين منكم .

وأنهت الاتصال بحركة حادة ، وهى تضيف فى شراسة :

ـ إننى أدفع بسخاء فلماذا أحصل على الأغبياء دومًا .

كانت تعلم أنها غير صادقة على الإطلاق فى عبارتها ، وأنها تستعين دومًا بأفضل الخبراء ، وأكثر العقول العلمية عبقرية ، وتدرك جيدًا أن أمثال هؤلاء لا ينشغلون قط بالأمن وإجراءاته ؛ إلا إن الغضب المستعر فى أعماقها كان يفوق سلامة منطقها فى تلك اللحظات ، وهى تتابع فى ثورة :

ـ مازلت أرغب فى أن يشهد (أدهم صبرى) لحظة انتصارى العظمى ، وسيطرتى التامة على العالم كله ، ولكنه يصر على تشتيت انتباهى ، وإلهاب أعصابى ، ودفعى إلى معارك جانبية ، لا وقت لها الآن :

زفرت فى توتر لا محدود ، وألقت الجزء الضئيل المتبقى من سيجارتها عبر الحجرة ، بكل ما تملك من قوة ، وكأنما تلقى معه كل توتراتها العنيفة ، وتراجعت فى مقعدها ، وأغلقت عينيها فى قوة ، وهى تقول لنفسها :

ـ لا .. لا تفقدى السيطرة على أعصابك الآن .. هذا ما يريدونه ، وما يأملونه بالضبط .. لذا ينبغى أن أتماسك .. ولن أظل هادئة .. قوية .. متماسكة .. ربما يسبب (أدهم) بعض المتاعب الآن ، ولكن هذا لن يستمر طويلاً .. رجالى سيهاجمونه من جانبى الممر ، بمنتهى القوة والعنف ، وبأعداد

لا قبل له بها .. سيحصد عدداً كبيراً منهم حتماً ، بالمدافع الآلية التى استولى عليها ، ممن أفقدهم وعيهم هناك ، ولكن القاعدة ستظل صحيحة .. الكثرة تهزم الشجاعة دوماً .. وهذا يعنى أنهم سيهزمونه فى النهاية ، وسيجبرونه على العودة إلى زنزانته الإليكترونية ، حيث سأبقيه هناك طوال الوقت ، حتى أنتهى من مهمتى ..

التقطت نفساً عميقاً ، فى محاولة لإقناع نفسها بما نطقته ، ثم لم تلبث أن تابعت :

ـ نعم .. سيهزمونه حتماً فى النهاية .

مع آخر حروف كلماتها ، انبعث صوت أحد رجالها عبر جهاز الاتصال المحدود ، قائلاً :

ـ لقد اتخذنا مراكزنا أيتها الزعيمة ، ونستعد لتنفيذ الهجوم من الجانبين .

اعتدلت فى مقعدها ، قائلة فى صرامة :

ـ فليكن .

ثم ضغطت زر رفع حاجزى الممر ، مضيفة فى وحشية :

ـ هجوم .

وارتفع الحاجزان ، من جانبى الممر ، وقبل أن يكتمل ارتفاعهما ، انقض جنودها من الجانبين ..

وبمنتهى العنف ..

وعبر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود ، أتاها صوت رجلها ، وهو يهتف فى عصبية :

ـ لقد حطَّم كل المصابيح أيتها الزعيمة .. الممر مظلم تماماً ، ولا يمكننا إطلاق النار ، دون أن نصيب رفاقنا ، على الجانب الآخر .

اتسعت عيناها فى قوة ، وهتفت بمنتهى الحنق والغضب :

ـ أيها الـ ....

ودون أن تكمل هتافها ، مالت بسرعة ، تضغط زر إعادة إغلاق الممر فى الجانبين ، وهى تقول :

ـ استخدموا مصابيحكم .. إنه هناك .. بينكم .

كانت تستطيع تخيُّل ما حدث ، كما لو أنها كانت هناك ؛ من فرط معرفتها بطبيعة (أدهم) وأسلوبه ..

لقد أطفأ الممر تماماً ، واستبدل ثيابه حتماً ، مع ثوب أحد الجنديين ، اللذين أفقدهما الوعى ، وسيمتزج حتماً بجنودها ،

عندما يقتحمون الممر في الجانبين ، مستغلاً الظلمة ، التي تمنع الكل من إطلاق النار ..

ولكنها لن تسمح له بإكمال لعبته ..

لقد أغلقت الممر على الكل ، وستستخدم جنودها مصابيحهم اليدوية ، لمعرفة كل من هناك ، وربما يشتبك هو معهم في سلسلة من المعارك العنيفة ، إلا إنهم سيكتشفون أمره في النهاية ..

وفي أسوأ الأحوال ، فالكل داخل الممر ..

داخل زنزانة كبيرة متسعة ، و .....

«إنه ليس هنا أيتها الزعيمة .. » ..

انبعث صوت الرجل ، عبر جهاز الاتصال المحدود ، فقالت في صرامة :

ـ ماذا تعني بأنه ليس هناك ؟! استخدموا مصابيحكم ، وتذكروا ملامحه ، التي تحفظونها عن ظهر قلب ، وستكتشفون أمره حتماً .

أتاها صوت الرجل مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ مصابيحنا قوية ، وكثيرة العدد ، وانعكاسها على الجدران

المعدنية يضيء المكان تماماً ، ولقد اصطف الرجال وفقاً لترتيب الطوارئ الأخير ، وكلنا يرى بعضنا البعض ، وحتى القائد والزميلان ، اللذان فقدا وعيهما من قبل ، نراهم في وضوح ، وتأكدنا من هوياتهم .. صدقيني أيتها الزعيمة .. إنه ليس هنا !

وانعقد حاجبا الزعيمة بمنتهى الشدة :

كيف لعبها (أدهم صبري) هذه المرة ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

ولو أنه ليس داخل الممر ، فأين ذهب ، في ظل جهاز مراقبة ، فقد حاستي السمع والبصر ؟!

أين يمكن أن يكون ؟!

أين ؟!

ومع دقة الموقف وخطورته ، لم تستطع أن تمنع موجة التوتر العنيف ، التي سرت في جسدها كله ..

ولكنها أدركت أن ما تحلم به ، لم يعد ممكناً ..

وأنه من المحتم أن يتم تغيير القواعد ، بالنسبة لـ (أدهم صبري) بالتحديد !

لذا ، فبكل حزمها ، ضغطت زر الاتصال الداخلى المحدود ، وهى تقول لرجالها فى صرامة :

ـ سنعيد فتح الممر ، على أن تنتشروا فى الغوّاصة كلها فورًا .. أريد تمشيط كل شبر منها ، بحثًا عن ذلك الثعلب المصرى .. وفى هذه المرة ، انسوا تمامًا كل التعليمات السابقة .

واعتدلت فى قوة ، وصوتها يزداد حزمًا وصرامة ، وهى تضيف :

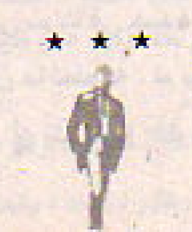
ـ فى هذه المرة ، أريده صريعًا .. وبأعنف وسيلة ممكنة ..

نطقتها وعيناها تتألقان بوحشية رهيبة ..

وحشية لم تشعر هى نفسها بها من قبل ..

أبدًا ..

* * *



٨ ـ الثعلب ..

انطلقت زفرة ملتهبة ، حملت كل هموم الدنيا ، من أعمق أعماق صدر مدير المخابرات الأمريكى ، وهو يتحدث إلى قرينه المصرى ، عبر جهاز اتصال ساخن مؤمّن ، قائلاً :

ـ الواقع أن تلك الغامضة تسيطر على الموقف تمامًا ، وتسبقنا دومًا بخطوة ، كما لو أنها تعرف مسبقًا ، ليس ما نفكر فيه الآن ، وإنما ما ننوى أن نفعله فى المستقبل أيضًا .

قال مدير المخابرات المصرى فى اهتمام :

ـ من الواضح أن لديها قاعدة معلومات رهيبة .

زفر الأمريكى مرة أخرى ، ولوّح بكفه ، قائلاً :

ـ هذا صحيح ، ولكننا نجهل تمامًا ، من أين يمكنها الحصول على قاعدة معلومات كهذه ؟! إنها تحتاج إلى عقد كامل من الزمان على الأقل ، لبلوغ هذا الحد ، من القوة والدقة !

صمت مدير المخابرات المصرى بضع لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ من الروس .

سرت قشعريرة باردة ، فى جسد الأمريكى ، وهو يسمع الاسم ، والذى اعتبره لسنوات طوال ، مصدر الشر والخطر ، واعتدل فى مقعده بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ الروس ؟!

أجابه مدير المخابرات المصرى ، بنفس الحزم :

ـ نعم .. المتخصصون لدينا درسوا أمر فيض المعلومات ، الذى تتميز به تلك الزعيمة ، وتوصلوا إلى نتيجة منطقية للغاية ، فصراع الجاسوسية ، بينكم وبين السوفيت ، والروس من بعدهم ، يمتد إلى ما يقرب من نصف القرن ، ومن المؤكد أنهم عبر كل هذا العدد من السنين ، زرعوا كماً ضخماً من الجواسيس فى صفوفكم ، بعضهم انكشف أمره ، مع مرور الزمن ، والآخر ظل كامناً ، نائماً ، حتى ترقى فى عمله ، واحتل بعض المناصب الكبرى ، فى الشركات والمصانع ، وحتى فى أجهزة الأمن عندكم ، تساعدهم على هذا طبيعة مجتمعكم ، الذى يعتمد على توافد المهاجرين إليه ، من بقاع الأرض ، على عكس طبيعة المجتمع السوفيتى والروسى ، والذى لا يرحب فى المعتاد بوجود المهاجرين والغرباء ، مما يجعل عمليات التجنيد هى الخيار الأول هناك ، وعمليات الزرع هى الأفضل عندكم(*) .

(*) زرع العميل يعنى دس شخص من خارج مجتمع ما ، على هذا المجتمع ، بحيث يتوطن فيه ، ويمد جذوره فى أرضه ، ويصبح مع الوقت أحد أفراده ، وهذا الأسلوب لا ينجح إلا فى المجتمعات المفتوحة ، التى تستقبل المهاجرين طوال الوقت ، أما عملية تجنيد العميل ، فتعنى اختيار شخص ما ، من المجتمع الآخر ، ودراسة شخصيته ، ونفسيته ، ثم إغراؤه بوسيلة ما ، حتى يعمل لحساب جهة أجنبية ، على نحو سرى تماماً .

غمغم الأمريكى فى انفعال :

ـ هذا صحيح .

ثم عاد يتساءل فى اهتمام :

ـ ولكن هذا يخص السوفيت ، أو الروس من بعدهم .

قال مدير المخابرات المصرى :

ـ بعد انهيار الاتحاد السوفيتى السابق ، لجأ بعض المسئولين السوفيت ، إلى بيع كل ما يقع تحت أيديهم للآخرين ؛ للحصول على ثروة سريعة ، تسمح لهم بالفرار إلى دول أخرى ، والعيش فيها بثراء معقول ، ولقد بلغ الفساد أيامها ذروته ، حتى إن بعض القادة العسكريين قاموا ببيع رءوس نووية لدول أخرى ، فما الذى يمنع انحراف بعض قادة المخابرات السابقين هناك ، واندفاعهم إلى بيع قاعدة المعلومات المخابراتية ، بكل ما تحويه من أسماء الجواسيس ، الذين يعملون فى الغرب(*) .

تراجع الأمريكى ، هاتفاً :

ـ يا إلهى ! لو صح هذا ، ستكون كارثة .

قال مدير المخابرات المصرى فى رصانة حازمة :

ـ أليست كذلك بالفعل ؟!

(*) حقيقة ..

مطّ الأمريكى شفتيه ، وهزّ رأسه فى مرارة وأسى ، وهو يغمغم فى خفوت :

ـ أنت على حق .

ثم أطلق زفرة ملتهبة أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ كان الأجدى أن نسعى نحن ؛ لامتلاك قاعدة المعلومات المخابراتية السوفيتية تلك .

صمت مدير المخابرات المصرى بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ كنا نتصوّر أنكم قد فعلتم .

لوّح الأمريكى بكفه ، كما لو أن قرينه يراه ، وهو يقول :

ـ ليتنا فعلنا .

ثم اعتدل ، يسأله فى اهتمام ملهوف :

ـ ألم تحصلوا أنتم عليها ؟!

صمت مدير المخابرات المصرى لحظة ، ثم سأله فى اهتمام :

ـ ألا ترغب فى معرفة النتيجة ، التى توصّل إليها خبراؤنا ، بعد تحليل كل ما ورد إلينا من معلومات ؟!

أدرك الأمريكى إنه يفرّ من إجابة سؤاله لسبب ما ، ولكن أحد مساعديه دلف إلى مكتبه هذه اللحظة ، وناوله مظروفًا مغلقًا ، فالتقطه منه فى سرعة ، وأشار إليه بالانصراف ، وهو يفض المظروف ، سائلا :

ـ وما الذى توصّلوا إليه ؟!

التقط مدير المخابرات المصرية نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب :

ـ إن رجلنا ما زال حيًّا .

انعقد حاجبا الأمريكى فى شدة ، وهو يطالع التقرير ، الذى سلمه إياه مساعده منذ لحظة ، فى حين تابع مدير المخابرات المصرى فى حزم ، عبر الخط الساخن :

ـ وإنه هناك .. فى وكر تلك الزعيمة الغامضة ..

ولم ينبس الأمريكى ببنت شفة ..

فهذا بالضبط ، كان محتوى التقرير ، الذى تسلّمه من الخبراء الأمريكيين ، الذى يطالعه بنفسه ، فى تلك اللحظة .

ولقد خفق قلبه بعنف ، مع ذلك التوافق المذهل ..

بمنتهى العنف ..

فوجود رجل مثل (أدهم صبرى) ، على مقربة من تلك الغامضة ، قد يكون الأمل فى الخلاص من تلك الأزمة الرهيبة ..

الأمل الأخير ..

* * *

فى ظل نظام مراقبة أصيب بالشلل التام ، حمل (أدهم) ذلك المدفع الآلى ، الذى حصل عليه من أحد جنود الزعيمة ، وهو يتحرك فى نشاط حازم ، عبر ممرات الغوّاصة الخفية الرهيبة ..

كان يراجع ذاكرته جيدًا ، ليقود نفسه إلى تلك القاعة الكبيرة ، التى تحوى أجهزة التحكم القوية والحديثة ..

عقله وخبرته ألهماه بأنها أخطر مكان فى الغوّاصة كلها ..

أهم وأخطر مكان ..

على الإطلاق ..

لذا فقد عقد العزم على تدمير القاعدة كلها ..

بكل ما فيها ..

ومن فيها ..

فعلى الرغم من كراهيته الشديدة للقتل والتدمير ، كان يدرك جيدًا أن تدمير تلك القاعة ، أيًا كان الثمن ، قد يعنى إنقاذ الأرض كلها ، من سيطرة مجنونة وحشية ..

وكان مستعدًا لدفع حياته كلها ، ثمنًا لمنع تلك السيطرة ..

ودون أدنى تردُّد ..

ومع تردُّد الفكرة فى ذهنه ، دفع المزيد من الدماء إلى عروقه ، وضاعف من سرعته ونشاطه ، وهو يعدو عبر الممرات ..

ويعدو ..

ويعدو ..

ولكن الزعيمة كانت قد توصلت بذكائها المفرط ، إلى ما يسعى إليه ، وأغلقت كل الطرق أمامه ..

كل طريق ، يمكن أن يقود إلى قاعة التحكُّم والسيطرة الرئيسية ، أغلقه حاجز من الصلب ..

كل طريق بلا استثناء ..

وعلى الرغم من هذا ، لم ييأس (أدهم) ..

لم ييأس أبدًا ..

لقد واصل البحث عن منفذ إلى المكان ..

واصل ..

وواصل ..

وواصل ..

ولكن تلك الزعيمة كانت قد أغلقت كل السبل بالفعل ..

صحيح أن خطته قد أفسدت شبكة المراقبة بأكملها ، وأنها تجهل تمامًا موقعه بالتحديد ، إلا إنها كانت من الذكاء ، بحيث تحاصره فى مسارات محدودة فحسب ..

تمامًا كفئران التجارب العلمية ..

وهو يبغض هذا الموقف تمامًا ..

وإلى أقصى حد ..

توقف فى أحد الممرات ، وتلفت حوله فى اهتمام ، وعقله يعمل ..

ويعمل ..

ويعمل ..

ثم قفزت إلى ذهنه فكرة بعينها ..

السوار الأمنى الإليكترونى ..

لقد استغل الصدمة الكهربية الوقائية ، التى تنطلق منه ، عند محاولة انتزاعه المحدودة ، لتدمير شبكة المراقبة كلها ، ويمكنه أن يقوم بالإجراء نفسه ، لإفساد آليات تلك الحواجز الفولاذية ، ورفعها عن طريقه ؛ لبلوغ قاعة السيطرة الرئيسية ..

راجع ذهنه فى سرعة ، كل معلوماته عن الدوائر الكهربية والإليكترونية ، قبل أن ينتقى نقطة ما ، أعلى الحاجز الذى أمامه ، ويلصق بها الإطار الخارجى للسوار الأمنى ، ثم يدس سبابته ، بين معصمه وقطع المطاط ، التى تقيه أثره ، ودفع السوار إلى أعلى ، و ....

ولم يحدث شىءٌ !!

أى شىء !!

السوار الأمنى الإليكترونى ظل ساكناً ، خاملاً ، كما لو أنه قد فقد طاقته كلها ، فى المحاولة السابقة ..

أو إنه يعمل فقط ، من خلال إشارات خارجية ، يتلقاها من الشبكة الأمنية ، التى أتلفها هو منذ قليل ..

وهذا يعنى أن السوار الإليكترونى لم يعد يعمل ..

على الإطلاق ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يعيد دراسة الموقف كله ، على ضوء المعلومات الأخيرة ، و .....

وفجأة ، بدأ الحاجز الفولاذى يتحرك ..

بدأ يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

وتوترت كل عضلة فى جسد (أدهم) ، وهو يمسك مدفعه الآلى فى قوة ، ويصوبه نحو الحاجز ، و ......

وفجأة ، ارتفع الجزء المتبقى من الحاجز دفعة واحدة ، وبدا أمامه الممر الخالى ، يمتد نحو منحنى بعيد ، على مسافة مايقرب من عشرين متراً منه ، قبل أن يسمع صوت الزعيمة ، وهى تهتف عبر جهاز الاتصال المحدود ، لأحد رجالها :

ـ لابد أن يكون داخل ذلك الممر الآن .. كل الممرات الأخرى مغلقة في وجهه .. حاولوا استعادة السيطرة التامة على الموقف بأى ثمن .. هل تفهمون ؟! بأى ثمن .

ومع آخر حروف هتافها ، ظهر الجنود ، عند ذلك المنحنى البعيد ..

وفور رؤيتهم (أدهم) ، فى النهاية الأخرى للممر ، ارتفعت فوهات مدافعهم الآلية فى سرعة وتحفز ..

وانطلقت رصاصاتهم ..

كالمطر ..

ودون أن يضيع جزءاً من الثانية ، ضغط (أدهم) زناد مدفعه الآلى بدوره ، وهو يمطرهم أيضاً برصاصاته مع تراجعه السريع ..

وتفجرت الرصاصات في الأجساد ..

بمنتهى العنف ..

وتساقط رجال الزعيمة ..

وتفجرت دماؤهم ..

وشعر (أدهم) برصاصة تخترق فخذه ..

وثانية تحرق ذراعه ..

وثالثة تمر على مسافة سنتيمتر واحد من عنقه ، وهو يتراجع ..

ويتراجع ..

ويتراجع ..

ولكن الرصاصات كانت تنهمر بلا هوادة ..

وبلا توقف ..

والممر الطويل ، الذى يتراجع عبره (أدهم) ، كان يقترب من نهايته ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وفى لحظة ما ، سيبلغ نهايته حتماً ..

وسيصبح التراجع مستحيلاً ..

وعدد رجال الزعيمة ضخم للغاية ..

وحتى لو أصابت كل رصاصة ، من رصاصات مدفعه أدهم ، ستنفد كل الرصاصات ، قبل أن يسقط كل الرجال ..

وسيلقى نحبه عندئذ حتماً ..

صحيح أن الموت لم يخفه أبدًا ، على مدى حياته كلها ، إلا أنه كان يشعر بالمرارة والأسف ؛ لأنه سيموت على هذا النحو ، دون أن يتم المهمة ، التى جاء من أجلها ..

ودون أن يمتلك القدرة ، على إنقاذ (مصر) ..

وإنقاذ العالم كله ..

ولكن حتى المرارة والأسف ، لم ينقصا من صموده وعزيمته شيئًا ..

لذا فقد واصل تراجعه ، وهو يطلق ما يتبقى من رصاصات مدفعه الآلى ، و ...

وفجأة ، انتبه إلى ذلك الباب إلى اليسار ..

باب مغلق بمزلاج محنى مستدير ، شأن كل الأبواب البحرية ، فى سلاح الغوّاصات ..

ولقد بدا هذا الباب وكأنه الأمل ..

الأمل الأخير ..

وبسرعة ومهارة ، أدار (أدهم) ذلك المزلاج المستدير ، فانفتح الباب فى يسر ، وجذبه هو نحوه ، ليصنع منه حاجزًا ، ارتطمت به رصاصات مدافع رجال الزعيمة ، الذين يعدون نحوه بأقصى سرعتهم ، قبل أن يثب هو داخل قاعة صغيرة ، ويدير مزلاجها خلفه فى قوة ؛ ليغلقها فى إحكام ، أمام مهاجميه ..

لم يكن يدرى أية قاعة تلك إلا أنه كان بحاجة إلى مهرب ، من تلك الرصاصات التى تنهال عليه بلا انقطاع ..

أى مهرب ..

وفى غضب ، بلغ مطاردوه الباب ، وراحوا يطلقون عليه رصاصاتهم ، فى ثورة ، لم تلبث أن هدأت ، عندما أدركوا أنه ما من سبيل لاقتحامه على هذا النحو ..

وبكل ما تبقّى فيه من قوة ، التقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وهو يغمغم :

ـ هدنة مؤقّتة يا (أدهم) .. ولكن كيف السبيل إلى الخروج من هذا السجن ، الذى وضعت نفسك فيه باختيارك هذه المرّة ؟!

بحث بأصابعه عن زر الإضاءة ، حتى عثر عليه ، فضغطه مغمغمًا :

ـ دعنا نعرف أوّلاً طبيعة هذا السجن .

لم يكد مصباح الحجرة الصغير يضاء ، من خلف حاجز زجاجى مقاوم للمياه ، حتى انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ..

إنه لم يكن داخل قاعة عادية ، بل كان داخل حجرة معادلة

ضغط، من تلك التي ينتقل إليها الغواصون، قبل خروجهم إلى أعماق المحيط.. وفي نفس اللحظة، التي أدرك فيها (أدهم) ماهية المكان، بدأ حاجز آخر في نهايته يفتح في بطء..

وفي هذه المرة، تدفقت مياه المحيط إلى الحجرة في قوة..

وازداد انعقاد حاجبي (أدهم)، في توتر بالغ..

فمع سرعة تدفُّق مياه المحيط، لن تلبث أن تمتلئ بها الحجرة كلها، خلال دقيقة واحدة على الأكثر..

وعندئذ لن يكون هناك سبيل للنجاة، من الموت غرقًا في الأعماق..

أعماق المحيط الأطلنطي..

أعمق الأعماق.

* * *

انتهى الجزء الثالث بحمد الله

ويليه الجزء الرابع بإذن الله

(الصيدة)

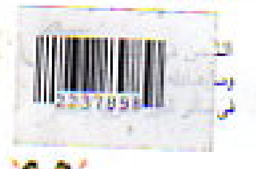


د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

148



الخطة (ب)

- ما مصير (أدهم صبرى) داخل غواصة الزعيمة الغاضبة فى أعماق الأطلنطى ؟!
- ما هى الخطة (ب)، وكيف يتواصل الصراع بعد أن تمتلك الزعيمة السيطرة الكاملة ؟!
- ترى من ينتصر هذه المرة .. بعد أن انطلقت (الخطة (ب)) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل).



العدد القادم (المصيدة)

